الصراع الدولى حول شبه الجزيرة العربية
فى
القرن الســادس الميــلادى

بقلــم
أ٠د٠ رأفت عبد الحميــد(*)

على مشارف النهاية ، للربع الأول من القرن الســادس الميلادى ، حملت صفحة الماء ، عند الطرف الجنوبى للبحر الأحمر ، أسطولا ضخما من السفن الحربية ، كان يقل جيشا من الأحباش ، وجهته بلاد العرب السعيدة ٠٠ اليمن ٠٠ Arabia Felix ٠٠ ما لبث أن ألقى عند مينــاء « مخا » Mokha مراسيه ، ليندفع جنوده الى اليابسة يصطدمون بقــوات الملك الحميــرى ، « ذى نواس » ، الذى سرعان ما حلت به وبجيشه الهزيمة ، عندها آثر أن يبتلعه اليم على أن يساق أســيرا فى موكب نصر الأحباش ، اذ ساق جواده وألقى بنفسه فى البحر ، ليخط بذلك الصفحة الأخيرة فى ملك الحميريين ، وليقول فى رثائه « علقمة بن ذى جدن » :

أو ما ســمعت بقيل حمير يوسـف
أكــل الثعالف(١) لحمــه لــم يقبــر
ورأى بــأن المــوت خـير عنــده
من أن يــدين لأســود أو أحمــر

ولتمسى اليمن بذلك تابعة لمملكة أكسوم Auxuma ، وان كان ذلك الى حين ، حين يستقل بها ـ ذاتيا ـ أبرهة Abramos « الأشرم »، ويقيم على أرضها ممنكة حبشية ، حاملا لقب « ملك ســبأ وذى ريدان وحضرموت واليمن وتوابعها وتهامة » ٠

(*) أستاذ تاريخ العصور الوسطى ـ كلية الآداب ـ جامعة عين شمس ٠

وتتفق المصادر التاريخية العربية(٢) وتظاهرها كتب التفاسير(٣) على أن هذا الغزو الحبشى لليمن ، انما كان نتيجة طبيعية للاضطهاد الدينى الذى أنزله « ذو نواس » ، وكان قـــد تهود ، بالمســيحيين فى مملكته ، خاصــة منطقة نجران ، محاولا قهـــرهم على هجران دينهم والتحول عنه الى اليهودية • وتقرن هذه المصادر كلها تلك الأحداث بما ورد فى القرآن الكريم عن أصحاب الأخدود• ولا تبتعد بعض المصــادر البيزنطية والسريانية المعاصرة(٤) كثيرا عما أورده المؤرخون والمفسرون المســـــلمون •

ورغم ما يقدمه المفسرون من روايات كثيرة وآراء متعددة حـــول قصة أصحاب الأخدود ، الا أنهم يتفقون على أن « أخدود » ذى نواس كان واحدا بين هذه الأخاديد ، وأنه المعنى بقصص القرآن الكريم عن تلك الواقعة ، التى أثارت نوعا من الخلاف فى الرأى بين ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ، حول « يهودية » ذى نواس أو « وثنيته » • ويرى نفر من هؤلاء وأولئك فيه وثنيا ، مستندين فى ذلك الى النص القرآنى فى قوله تعالى : « ••• وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذى له ملك السماوات والأرض ، والله على كل شىء شـــهيد »(٥) . وعليه يبدى ياقوت الحمـــوى دهشــته من نسب حادث الأخـــدود الى ذى نواس « اليهودى » ، لأن ذلك يقضى ـ فى رأيه ـ أن يكون القاتل والمقتول من أهل التوحد ، والله قـــد ذم المحـــرق والقاتل لأصــحاب الأخدود(٦) • وعلى نهجه ينسج محدثون قولهم ان ذا نواس دعا أهل نجران المسيحيين للرجوع الى الوثنية لا الى اليهودية ، لأن المسيحية واليهودية المعاصرتين لنزول القرآن ، كانتا ـ حسب تعبيره ـ ديانتين سماويتين لا مجال لتفضيل احداهما على الأخرى !(٧) ، أو لأن ذا نواس ـ عند ثان ـ خشى عاقبة الاتصالات التى كانت قائمة بين المسيحيين فى مملكته ومملكة أكسوم على الجانب الآخر للبحر الأحمر(٨) •

غير أن هذا النص القرآنى الذى اتخذه هؤلاء دليلا للحكم بوثنية الملك الحميرى ، لو أخذ فى ضوء النصوص القرآنية الأخرى ، وليس منفصلا عنها ، عد دليلا أوضح بيانا على « يهودية » ذى نواس ، تعنى

بذلك قول الله سبحانه وتعالى : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا ، اليهود والذين أشركوا »(٩) والاتيان باليهود قبل المشركين فى الآية ، له دلالته ومغزاه ، وقوله تعالى أيضا : « وقالت اليهود ليست النصارى على شىء ، وقالت النصـــارى نيست اليهـــود على شىء ، وهم يتلون الكتاب »(١٠) ، ثم ما جاء على لسان اليهود ، « ... قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل »(١١) ، ولما كان المسيحيون من غير اليهود خارجين عن نطاق اليهودية عقيـــدة ، فهم يندرجون ضمن الأميين أو الأمميين حسب تعبير التوراة ، وذلك فى عرف اليهود . وقد لمس القرطبى ذلك فى « الجامع » بتأكيد القول على يهودية ذى نواس ، عنـــد تفسيره لسورة البروج ، فى قوله .. : « فخد لهم أخدودا وعرضهم على الكفر (يعنى الكفر بديانتهم واعتناق اليهودية) فمن أبى أن يكفر قذفه فى النار »(١٢) . وكان هذا بعينه الاعتراف الذى ورد فى الرسالة ، التى تذكرها المصادر التاريخية منسوبة الى ذى نواس ، والتى بعث بها الى المنذر الثالث ملك الحيرة ، حيث قال : « كان أول عمل أقدمت عليه بعد أن غدوت ملكا على حمير ، هو ذبح المسيحيين جميعهم ، الا من رأى أن يتحول الى اليهودية مثلنا ... لقد طلبت منهم أن يكفروا بالمسيح والصليب ويصبحوا يهودا ، لكنهم أصروا على عقيدتهم »(١٣) .

ولم يكن ذو نواس(١٤) أول من تهود من ملوك حمير ، وان كان آخرهم ؛ ذلك أن المنطقة الجنوبية من شبه الجزيرة العربية ، كانت قـــد أضحت أحد المراكز الهامة لليهودية خلال القرون الأولى للميلاد(١٥) ، اذ وجد اليهود فيها ملجأ لهم وملاذا ، بعيدا عن أيدى الرومان ، عقب الأحـــداث التى وقعت على عهـــد كل من الامبراطورين فسباســيان Vispasianus ابان القـرن الأول للميـــلاد ، وهادريان Hadrianus فى القـــرن التالى ، فى أعقاب ثورتهم التى أشعلوها ضـــد الحكومة الرومانية ، وامتدت من برقة الى فلسطين . ومن ثم وجد اليهود فى جنوب الجزيرة العربية وغربها مهربا بعد تدمير الهيكل . وراح نفوذهم يزداد تدريجيا خاصة خلال الربع الأخير من القرن الرابع ومطلع القرن الخامس ، عندما تحول بعض من ملوك حمير آنذاك الى اليهودية(١٦) .

ويحاول بعض المؤرخين(١٧) أن يضـــفى على « يهـــــودية » ذى نواس طابعا سياسيا ، بمعنى أنه فى مواجهة القوى الدولية الكبرى آنئذ ، الامبراطورية البيزنطية ومملكة أكســـوم بعقيدتها المســـيحية ، وامبراطورية الساسانيين الفرس بوثنيتها ، أقدم ملك حمير على التحول الى اليهودية ، ليقف بها قوة ثالثة بين هؤلاء وأولئك . غير أن هـــذا المنحى يحمل كثيرا من المبالغة ، واذا كان قد صـــدق من بعـــد على امبراطورية الخزر Khazar فى القرن الثامن الميلادى ، عندما تحول ملكها وشعبه الى اليهودية ، ليتخلص من الصراع السياسى العنيف الدائر حول مملكته بين الخلافة الاسلامية فى بغداد ، والامبراطورية المسيحية فى القسطنطينية(١٨) ، فانه من الصعب قبول ذلك فى حالة ذى نواس ؛ فالخزر كانوا يومئذ قوة سياسية كبرى يحسب فى لعبة الأمم حسابها ، أما اليهود فى اليمن فلم تكن أعدادهم ولا قوتهم ولا مكانتهم تسمح لهم بالقيام بمثل هذا الدور ، أو انشاء « دولة يهودية » ، على حد تعبير بعض المؤرخين المحدثين(١٩) ، اذ كان الى جـــوارهم المســـيحيون ، خاصة فى ظفار ، عاصمة الحميريين ، ونجران ، المركز التجارى الهام فى طريق القوافل الى الشمال ، بالاضافة طبعا الى الأغلبية الوثنية التى كانت لها الســـيادة طيلة القرن الأخير على الأقل ، وذو نواس نفســـه كان وثنيا قبل أن يتحول الى دين يهود ، ومن غير المعقول ، أن يتمكن خلال سنى حكمه القصيرة ، حوالى عشر سنوات (٥١٥ ـ ٥٢٥) من اقامة « دولة يهودية » من حطام مملكة حمير التى كانت تعانى أوجاع الفوضى السياسية والاضطراب الاقتصادى والصراع العقائدى خلال أيامها الأخيرة ، وان كان اليهود بالطبع قد وجـــدوا فى « تهود » ذى نواس فرصة يقفزون عبرها الى دست السلطة ، منتهزين فرصـــة هذه الحال المتردية التى تعيشها حمير فى مرضها الأخير .

ولا شك أن ذا نواس نفســـه كان يدرك أنه بحـــاجة الى التأييـــد الخارجى لسياسته ، خاصة بعد أن راح يمارس سياســـة الاضطهاد ضـــد المسيحيين فى مملكته ، يدلنا على ذلك رسالته التى أشرنا اليها من قبل، والتى بعث بها الى المنذر الثالث ، يقص فيها على مسامعه أنباء ما حل بالمسيحيين على يديه ، ويطلب اليه فى الوقت نفسه أن يحذو حذوه ،

وأن يترفق فى معاملة يهود الحيرة ، ثم يعلن فى النهاية استعداده لتلبية كل ما يطلب اليه لصالح المنذر(٢٠) .

ورغم أن الرسالة تحمل فى كلماتها مظاهر الاعتـــداد بالنفس ، والتباهى بما أوقعه الملك الحميرى برعيته المسيحية ، ورغم ما يكون قد داخلها من عبارات تحمل طابع المبالغة ، مما قد يوحى بأنها مضافة الى نصها الأصلى ، ولم تصدر عن ذى نواس ، الا أنها فى الوقت ذاته تنبىء فى سطورها الأخيرة عن رغبته فى أن يقف المنذر الى جانبه ، مخافة مالابد أن يترتب على هذه الأحداث ، وخاصة وأنه يذكر فى رسالته هذه، أن عددا من الأحباش المقيمين على أرضه قد نالتهم يد العذاب(٢١) . ويؤكد ذلك ما أورده عن هذا الأمر أيضـــا ، المؤرخ البيزنطى المعاصر بروكوبيوس Procopius القيسارى(٢٢) . فاذا أضفنا الى هـــذا كله ما تذكره بعض المصادر البيزنطية والسريانية(٢٣) عن تعرض جماعات من التجار الرومان ، العابرين ، للقتل ضمن جملة المسيحيين فى ظفار ونجران ، أدركنا خطورة موقف ذى نواس ، والمغزى الحقيقى من وراء رسالته الى ملك الحيرة .

واذا كان المنذر الثالث قد أبدى شيئا من التعاطف ازاء رغبات الملك الحميرى ، والذى ربما يعزى الى ما يذكـــره ابن العبرى من انتمـــاء ذى نواس فى نســـبه لأمه ، التى كانت على اليهـــودية ، الى أهـــل الحيرة(٢٤) ، الا أنه كان تعاطفا سلبيا وقف فقط عند حـــد الأمنيات الطيبة ، دون التعاون الفعلى الذى كان يؤمله ذو نواس من خلال هذه المراسلات ، خاصة وهو يعلم علم اليقين ، مدى العلاقة التى تربط مملكة الحيرة بالامبراطورية الفارسية . ولعله كان يقصد بذلك أن يضمن وقوف احدى القوى الكبرى فى عصره الى جوارة ، ولمـــا كان الفرس بطبيعة الحال غير متحمسين ، عقيديا وسياسيا ، لنصرة المسيحية ، فقد أمل أن يتحقق له هذا العون فى اطار استغلال ظروف الصراع السياسى الدائر يومذاك بين فارس وبيزنطة .

ومع أننا لا نميل الى الأخذ بما يذهب اليه بعض الباحثين ، من أن اضطهاد ذى نواس للمسيحيين فى دولته ، بما فيهم الأحباش والتجار

الرومان ، كان متفقا عليه من قبل مع اللخميين فى الحيرة ومن ورائهم الفرس(٢٥)، معتمدين فى ذلك على الرسالة السابق ذكرها ، لأنه لو صح هذا الافتراض ، لامتد هذا الاضطهاد ليشمل مسيحيى الحيرة أيضا ، ولوجدت فعال ذى نواس ترحيبا من المنذر الثالث ، لكن شيئا من هذا لم يحدث ، نقول مع كل ذلك ، الا أن الذى لا شك فيه ، أن ذا نواس كان على علم كامل بمسألة الصراع الدولى الدائر آنذاك بين القوتين الكبيرتين والتى كانت شبه الجزيرة العربية احدى محطاته ، بما تمثله من أهمية اقتصادية ، وبالتالى سياسية ، تتجسد فى كونها تضم أهم طرق التجارة الرئيسية بين الشرق والغرب فى العصور القديمة وطوال العصور الوسطى .

وهذه النقطة الأخيرة تضيف بعدا جديدا لمسألة الاضطهاد الذى مارسه ذو نواس ضد المسيحيين فى مملكته ، مشركا معهم فى وطأته التجار الرومان والأحباش ؛ فمما لا ريب فيه أن يكون ازدياد نفوذ هؤلاء التجار ، العابرين والمقيمين قد أثار حفيظته ، اذ رأى ما يجنيه أولئك من ثروات طائلة من جراء ممارستهم أو سيطرتهم على طريق التجارة الرئيسي عبر جنوب الجزيرة العربية والبحر الأحمر الى شمالها وحتى البحر المتوسط ، انتهاء ببلاد الشام أو مصر فى طريقه الى الأراضى البيزنطية ، ولابد أن يكون قد رأى أيضا فى المسيحيين فى ظفار ونجران أعوانا لهؤلاء الرومان والأحباش فى هذا السبيل . ولذا راح يمارس سياسته والأمل يحدوه فى أن يتحول هذا الثراء لبنى عقيدته من اليهود ، اذا ما حل تجارهم محل أولئك الأجانب « المسيحيين » ولعبوا دورهم فى حركة التجارة النشطة بين مناطق المواد الخام والتوابل والبخور والحرير ، فى شرق آسيا وجنوبها الشرقى وشرق أفريقيا ، وأسواق الاستهلاك فى الامبراطورية البيزنطية وما وراءها . ومن ثم فان سياسة الملك الحميرى تجاه المسيحيين ، اذا كانت لا تخلو من نغمة التعصب الدينى ، الا أنها فى الوقت نفسه تنطوى على أهداف اقتصادية بعيدة . وان كان أحد الباحثين أيضا يفسر هذه السياسة بأنها مجرد اجراء انتقامى للمعاملة السيئة التى يلقاها اليهود من الادارة الرومانية(٢٦) .

وكان طبيعيا وفد اتجه ذو نواس ببصره الى خارج دولته ، ليضمن الى جواره ملك الحيرة ، ومن ورائه قوة الفرس اذا حزب الأمر ، أن يولى المسيحيون هم الآخرون وجوههم شطر قوة دولية أخرى يدينون بدينهـا ، هى الامبراطورية البيزنطية . وهنـا تختلف الروايات فى المصادر الاسلامية مرة أخرى حول الوجهة التى اتخذ « دوس ذو ثعلبان» ـ الذى نجا من الاضطهاد ـ اليها سبيلا ؛ فبعضها يقرب به المسافة وصولا الى كالب Kaleb نجاشى الحبشـة(٢٧) ، وبعض ثان يوجهـه الى جوستين Justinus امبراطور الرومان فى القسطنطينية(٢٨) ، وثالث يورد الروايتين معا(٢٩) ، ورابع يحـاول التوفيق ؛ فالأزرقى يذكر أن دوس ذا ثعلبان هذا اتجه الى « القيصر » مباشرة ، وقص عليه القصص ، فقال له : « بعدت بلادك عنا .. لكن سأكتبب الى ملك الحبشة فانه على ديننا فينصرك »(٣٠) . بينما تأخـذ رواية البلخى الجانب الآخر ، اذ يقول : « وصل صريخ أهل نجران الى النجاشى ملك الحبشة، فقال : « عندى رجال وليس عندى سفن ، فكتب الى قيصر الروم ويعث اليه بالأوراق المحرقة من الانجيل يغريه بذلك »(٣١) وقد لا تعدو هذه الرواية الحقيقة ، فالسفن التى تمتلكها مملكة أكسوم ، كانت سفنا تجارية فى معظمها ، ولم تكن أعدادها تسمح بنقل جيش كبير الى الشاطىء الآسيوى المقابل . ومن ثم تم نقل القوات الحبشية على سفن الأسطول البيزنطى التى كانت راسية فى موانى القلزم (السويس) وعيتاب (تيران) والتى تجمعت كلهـا فى ميناء عدول Adulis التابع للأحباش(٣٢) .

ومهما يكن من أمر ، فالذى يصح لدينا أن كلا من الامبراطور البيزنطى والملك الحبشى ، قد أحاطا خبرا بما حدث لأبناء دينهما وجلدتيهما ، من اضطهاد على يد ملك حمير . ولم يكن أى منهما باقل من صاحبه حرصا على أن يمد يديه لنصرة من استنصروه ، ليس فقط بدافع الوازع الدينى ، بل لأن كلا منهما له مصالحه الخاصة فى هذه المنطقة ، والتى تتفق مع بعضها فى غالب الأحيان ، ولم تكن أحداث ظفار ونجران الا الضوء الأخضر الذى أنار لهما الطريق للعمل سويا من أجل تحقيق هذه المصالح ؛ فقد كانت الجهود العسكرية الحبشية البيزنطية

تمثل حجر الزاوية فى العلاقات بين القوتين فى القرن السادس الميلادى، وخلال هذه السنوات ظلت أكسسوم الحليف الوفى لبيزنطة فى المنطقة الأفرو ـ عربية ، على حد تعبير أحد الباحثين(٣٣) ، وظل الحال على هذا النحو الى أن تم الغزو الفارسى لليمن فى سبعينيات ذلك القرن .

كانت مملكة أكسوم قد بلغت درجة كبيـــرة من القـــوة السياسية والازدهار الاقتصادى ، خلال القرن الرابع الميلادى ، على عهد ملكها عَيْـــزَان Aezanes وظلت على هذا القدر من القوة حتى القرن السابع الميلادي . وامتدت سيطرتها شـــمالا حتى بلاد النوبة(٣٤) . بل ان منطقة جنوب شبه الجزيرة العربية وأجزاء من غربها ، خضعت لمملكة أكسوم خلال فترة قصيرة من القرن الرابع ، كما أن الأحباش كانوا قـــد اشتركوا من قبل فى الحروب الأهلية التى دارت بين سبأ وذى ريدان (حمير) ، وحمل ملوكهم آنذاك الألقاب التى أشرنا فى صدر هـــذا البحث الى أن أبرهة حملها من بعد ، « ملك سبأ وذى ريدان وحضرموت واليمن وتوابعها فى تهامة »(٣٥) . هذا بالاضافة الى نشاط أكســـوم التجارى فى البحر الأحمر والمحيط الهندى عن طـــريق ميناءى عدول وزيلع ، حيث كانت سفنها تنقل العـــاج الى الهنـــد وفارس وحمير وبيزنطة(٣٦) واذا كانت سيلان تمثل مركز التجارة بين الصين والشرق الأدنى فى تلك الأوقات ، واذا كانت سفن الصينيين تســـير غربا حتى سيلان ، فان التجارة فيما بين ســـيلان والمناطق الواقعة غربها ، كان يتولى أمرها الفرس والأحباش(٣٧) .

هكذا اذن ، كانت أكسوم ، بسيطرتها على ميناءى عدول وزيلع ، تتحكم فى المدخل الجنـــوبى للبحر الأحمر ، الذى كانت الامبراطورية البيزنطية تمتلك القسم الشمالى منه ، وكان هذا البحر وما يحاذيه على ساحله الشرقى ، يمثل واحدا من أهم الطرق التجارية الرئيسية آنذاك ، ان لم يكن أهمها على الاطلاق ، حيث كانت التجارة القادمة من الصين وجنوب شرقى آسيا وشرق أفريقيا تتجمع فى عدن ، « المخزن الرومانى» ـ كما عرفت(٣٨) ، ومن هناك تنقلها السفن الحبشية أو البيزنطية الى ميناء القلزم ، ومنه الى النيل عبر قناة تم حفرها لتصل بين النيل وخليج القلزم ، وهى التى كانت تعرف بقناة تراجان(٣٩) ، ثم الى البحـــر

المتوسط بعد ذلك عن طريق النيل ؛ أو الى ميناء أيلة على رأس خليج العقبة، الى دمشق مارا بالبتراء وبصرى، ومن دمشق الى الساحل(٤٠)٠

أضف الى هذا الطريق البحرى طريقا آخر للقوافل يحاذيه ، وهو الذى يمتد من عدن الى مأرب ثم فى جوف اليمن الى معين ونجران ، ومنها الى الطائف ومكة فيثرب ، ثم الى واحة تيماء مـــرورا بمدائن صالح (الحجر) ثم البتراء أو معان من بعد ، حيث تتجه بعض القوافل الى غزة ومصر ، بينما يستمر الجزء الأعظم منها الى بصرى فدمشق الى صور على البحر المتوسط ، أو يمتد شمالا الى حمص فأنطاكية(٤١) ٠ وفى دمشق وحمص كان هذا الطريق يلتقى بطريق آخر قادم من الشرق، يبدأ من الخليج العربى ويصعد فى الفرات حيث يتجه غربا الى المدن السورية مارا بواحة تدمر ٠ وتربط بين هذين الطريقين سلسلة من طرق القوافل الفرعية ، أهمها الطريق الذى يبدأ من نجران ثم يسير فى وادى الدواسر الى الجرعا (جره) Gerrha على ساحل الأحساء(٤٢) ٠

على هذا النحو ، ندرك أن البحر الأحمـــر والخليج الفارسى ، يكملهما النيل والفرات ، كانا ممرين طبيعيين للملاحة بين حوض البحر المتوسط ودول شرقى آسيا وجنوبها الشرقى وشرق أفريقيا ، بالاضافة الى طريق القوافل الرئيسى الموازى للبحر الأحمر وروافده وتفريعاته ٠ وهذا يعنى أن عرب شبه الجزيرة العربية كانوا يطلون من جانبى جزيرتهم هذه ، على أهم الطرق التجارية الكبرى فى عالم القرن السادس(٤٣) ٠

وقد شكلت اليمن بصفة خاصة أكبر سوق تجارية فى شبه الجزيرة العربية ، فكانت تتاجر فى خاصلاتها الاقليمية كاللبان والعطور والطيب والبخور ، الذى كانت له أهميته الخاصة فى ذلك العصر(٤٤)، كما كانت تتاجر أيضا فيما يرد اليها من بضائع الخليج والهند والصين مثل اللؤلؤ والمنسوجات والعـاج والذهب وريش النعام والحـــرير ، بالاضافة الى ما يأتيها من السواحل الشرقية لأفريقيا(٤٥) ٠ وهذا يعنى أنها كانت حلقة الاتصال بين الهنـــد والحبشـة وشرق أفريقيا من ناحية ، وشمال أفريقيا وجنوب أوروبا من ناحية أخرى ، حتى خيل لبعض القدماء أن هناك قارة تمتد من أفريقيا الى الهند ، وأن بلاد العرب بمثابة بيت وسط

هذه القارة يقع على الساحل الشمالى من المياه الواقعة جنوب باب المندب(٤٦) ٠

واذا كان الفرس يسيطرون على تجارة الهند وطريق الشرق كما يسميه الدكتور « هيكل »(٤٧) ، أعنى طريق الخليج والفرات ، فان مملكة أكسوم والامبراطورية البيزنطية كان يعنيهما فى المقام الأول أن يدعما سيادتهما ونفوذهما على « طريق الغرب » ٠ ولا شك أن البيزنطيين كانوا بطبيعة الحال ، يفضلون أن يتسلموا بضائع الشرق من أيدى أصدقائهم الأحباش المسيحيين ، على أن يتلقوها من أيدى أعدائهم الفرس المجوس(٤٨) ٠ لهذا لم يكن غريبا أن نجد عددا ليس بالقليل من التجار البيزنطيين يذهبون الى أكسوم عن طريق أيلة وخليج العقبة ، أو من الاسكندرية ، بل ان بعضهم كان يركب سفنا حبشية تبحر بهم الى الهند(٤٩) ٠

منطقة اذن لها هذه الأهمية الاقتصادية ، فى عالم لعب فيه النشاط التجارى دورا بارزا فى دولاب العمل الاقتصادى ، وترك بصماته على الحياة السياسية ، كان لابد أن يتنافس فيها المتنافسون ٠ من هنا ندرك الأهداف الحقيقية للغزو الحبشى لليمن ، فقد كانت مملكة أكسوم ترى فى هذه المنطقة امتدادا طبيعيا لملكتها المزدهرة آنذاك ، وما دامت حمير غير قادرة فى أخريات أيامها ، بضعفها وتفككها ، على ادارة هذا الاقليم الحيوى ، اذن فلتقم أكسوم بهذا الدور ، حتى وان كانت الأسباب المعلنة ، الانتقام لضحايا نجران ، يعضد أكسوم ، بل ويدفعها الى ذلك دفعا ، الادارة الامبراطورية فى القسطنطينية ، حيث تخبرنا المصادر أن الامبراطور جوستين أرسل الى أسقف الاسكندرية ، يطلب اليه أن يستخدم نفوذه لدى ملك أكسوم ، لسرعة انجاز هذه الحملة العسكرية ، بما للكنيسة الاسكندرية من حق الرعاية على الكنيسة الحبشية ٠ لقد كانت القسطنطينية ترى سيادة حلفائها الأحباش على « بلاد العرب السعيدة »، تدعيما لسيادتها هى فى البحر الأحمر وعلى جانبيه ، كجزء أساسى من صراعها المستمر مع الامبراطورية الفارسية ، اقتصاديا وسياسيا وعقيديا، ومن هنا لم تتوان عن تقديم سفنها أسطولا يحمل الأحباش الى اليمن ٠

كان البيزنطيون يعلمون جيدا أن سـفن الفـرس لا تقف فقط عند سيلان والخليج الفارسى والشواطىء الجنـوبية الشرقية لشبه الجزيرة العربية ؛ فقد كان للفرس سفنهم فى عدول ، وليس من المستبعد أبدا أن تكون قد زارت حمير ، كما كانوا يرسلون قوافلهم التجارية الى اليمن ، ويوكلون حراستها لجماعات من العـرب يختارونهم من زعماء القبائل المعروفين الذين يتمتعون بالمهابة فى قومهم(٥٠) ، وكان هذا يثير الريبة فى نفوس البيزنطيين فى نيات الفـرس ، اذ لو تم التقارب بين ملوك حمير والساسانيين ، لوقعت الطرق التجارية الرئيسية المؤدية الى بيزنطة عبر الخليج والبحر الأحمر فى قبضة الفرس ، ولخسر البيزنطيون بذلك خسارة اقتصادية كبيرة ، ولضيق عليهم فى أهم ما يستوردونه من أقصى الشرق ، أعنى الحرير ، خاصـة وأن الفـرس كانوا يسيطرون بالفعل لفترات طويلة ، وان كانت متقطعة أحيانا ، على طريق برى ، لا يقل أهمية عن سابقيه ، يبدأ من وسط آسيا ويمضى محاذيا الساحل الجنوبى لبحر قزوين ، أو الشمالى فى فترة لاحقة ، وينتهى اما الى بحر آزوف أو الى القرم ، فى المواقع التى شيدها البيزنطيون ، أعنى مدينتى بسفور Bosporous وخرسـون Cherson باعتبارهما مخفرين أماميين ، وهو الذى يعرف بطريق الحرير(٥١) .

ولم يكن الاهتمام البيزنطى بشبه الجزيرة العربية ، وما يحيط بها ويمر فيها من الطـريق التجارية ، شـيئا حـديث عهد على الادارة الامبراطورية ، بل ان ذلك يعود الى فترة مبكرة منـذ بدايات العصر الامبراطورى الرومانى ؛ عندما أقدم أول الأباطرة أوكتافيانوس أوغسطس Octavianus Augustus على تكليف والى مصر آيليـوس جاللـوس Aelius Gallus بتجريد حملة على اليمن ، متخليا بذلك عن سياسة عدم التوسع ، وذلك من أجل تحقيق هـدف اقتصـادى هام(٥٢) . ولتحقيق ذلك حشد هذا الوالى حملة قوامها عشرة آلاف جندى ، وبعض وحدات مساعدة من الحامية المرابطة فى مصر ، وحصل على عون من الأنباط مقداره ألف رجل ، بعث بهم الملك عبادة الثالث مع وزيره صالح Syllaeus ليكون دليلا للحملة ، وأمده هيرودس ملك اليهود بخمسمائة يهودى ، حملتهم جميعا من ميناء أرسينوى Arsinoe (قرب السويس

الحالية) مائة وثلاثون حاملة للجنود ، يدعمها أسطول حربى من ثمانين سفينة ، اتخذت سبيلها فى البحر عجبا الى ميناء الحوراء (ليوكى كومى Leuke Kome) ، وكان ذلك حوالى العـــام الرابع والعشرين قبـــل الميلاد(٥٣) . وهذه الاستعدادات تدل بوضوح على مدى الاهتمام الذى كان يوليه الرومان لهذه الحملة وما يؤملون عليها من نجاح .

غير أن هذه الحملة بكل ما توافر لديها على هذا النحو ، حققت فشلا ذريعا فى جانبها العسكرى وبالتالى السياسى ، الا أن ذلك لم يهن من عزم أوغسطس ، بل راح هو وخلفاؤه من بعـــد يبدون اهتمامهم المتزايد بهذه المنطقة وطرقها التجارية ، وأدى ذلك الى تحول جانب من تجارة الشرق من ميناء « ليوكى كومى » الى ميناء «ميوس هرموس» المصرى (أبو شعر القبلى حاليا)(٥٤) . ومع ادراك أباطرة الرومان لصعوبة الغزو العسكرى المباشر لجزيرة العرب وجنوبها ، لطبيعة المنطقة وبعد الشقة ، ازداد الاهتمام بتقوية أسطولهم التجارى فى البحر الأحمر، وتحسين علاقاتهم السياسية مع زعماء القبائل العربية ، وتعزيز تحالفهم مع مملكة أكسوم ، للحفاظ على مصالحهم الاقتصادية ، وتحقيق أهدافهم السياسية(٥٥) .

ومع تحول الامبراطورية الرومانية الى المسيحية « كديانة شرعية» riligio licita فى أول الأمر على يد الامبراطور قسطنطين الأول Constantinus I (٣٠٦ ـ ٣٣٧) ثم ديانة رســـمية مع نهاية القرن الرابع الميلادى زمن الامبراطور ثيودوسيوس الأول(٥٦) Theodosius I (٣٧٨ ـ ٣٩٥) ظهر على مسرح الأحداث عامل جديد كان له دوره الفعال فى تسيير سياســـة الادارة الحـــكومية فى القسطنطينية ؛ فالامبراطور الرومانى باعتباره أولا « مبعوث الرب »(٥٧) الى الناس ، ثم « نائب المسيح » Vicarius Christi على الأرض من بعـد ، أصبح « مصـباح الأرثوذكسية » وحامى ذمار « الايمان القويم » وأسقف المسيحيين خارج دولته ، والمسئول عن التبشير بالمسيحية بين « الأمميين »(٥٨) . وهذه كانت تمثل حجر الزاوية فى الالتزامات المنوطة بالامبراطور باعتباره كما ذكرنا « نائب المسيح » على الأرض .

وفى هذا السبيل أرسل الامبراطور قسطنطيوس Constantius (٣٣٧ ـ ٣٦١) بعثة قام بها ثيوفيلوس Theophilus حوالى مطلع النصف الثانى من القرن الرابع الميلادى ، الى اليمن للتبشير بالمسيحية بين الحميريين(٥٩) ، حتى اذا نجحت هذه البعثة التبشيرية فى مهمتها، كان ذلك يعنى تلقائيا امتداد النفوذ البيزنطى الى تلك المنطقة ، فقد كانت الدبلوماسية البيزنطية الذكية ، تضع بين قواعدها الرئيسية التى ترتكز عليها ، أن يتبع النفوذ السياسى البيزنطى الأسقف الأرثوذكسى أينما حط رحاله ووصلت دعواه ، والأمثلة على ذلك عديدة طوال امتداد التاريخ البيزنطى(٦٠) .

ولا يغيب عن أذهاننا أن قسطنطيوس كان يدين بالمذهب الآريوسى(٦١) ويسعى جهده لفرضه على كل الكنائس فى شطرى الامبراطورية ، شرقا وغربا ، ولما كان يعلم أن كنيسة أكسوم تدين بالمذهب النيقى ، منذ قام الأسقف السكندرى أثناسيوس Athanasius (٣٢٨ ـ ٣٧٢) برسم فرومنتيوس Fromentius أسقفا عليها فى أربعينيات القرن الرابع ، فقد حاول أن يجعل من ثيوفيلوس هذا الآريوسى فى اليمن ، منافسا لهذا الأخير ، النيقى ، فى أكسوم ، خاصة بعد أن فشلت مهمته لدى ملك أكسوم ، عندما حاول أن يحمله على العداء لأثناسيوس السكندرى(٦٢) .

ولا يبعد مطلقا أن يكون ثيوفيلوس قد حمل الى جانب مهمته التبشيرية ، مهمة أخرى تتعلق بالتفاوض مع ملكى أكسوم وحمير لضمان حسن معاملتهم للتجار الرومان الذين كانوا يعبرون ببضائعهم عن طريق اليمن ، والعمل معا لمجابهة السيادة البحرية التجارية للفرس فيما وراء هذه المنطقة باتجاه الشرق(٦٣) ، يزيد من حرصه على ذلك الهزائم التى كانت تتلقاها الامبراطورية على يد الفرس فى أعالى الفرات فى تلك الفترة .

ولم يفتر الاهتمام الرومانى بهذا الشريان الحيوى الهام ، رغم الاضطرابات السياسية الداخلية التى عانت منها القسطنطينية خلال القرن

الخامس الميلادى ، متمثلة فى الصراع السياسى بين الأحزاب الرومانية والجرمانية والايزورية فى العاصمة(٦٤) ، بالاضـــافة الى الخـــلافات العقيدية الحادة التى دهمت الكنيسة المسيحية فى الولايات الشرقية بشكل خاص ، وأسفرت عن انقسام خطير بين كنيستى القسطنطينية وروما من ناحية ، وكنيستى الاسكندرية وأنطاكية من ناحية أخرى ، بحيث أصبحت العاصمة الامبراطورية تدين بالأرثوذكسية الخلقيدونية ذى الطبيعتين فى المسيح ، بينما تؤمن كنائس الشرق البيزنطى بالأرثوذكسية ذى الطبيعة الواحدة(٦٥) . ورغم كـــل ذلك فقـــد كانت الإدارة الامبراطورية فى القسطنطينية تدرك مدى الخطـــورة الكامنة التى يمكن أن تترتب على هذا الخلاف العقيدى ، خاصـة بينها وبين أكســـوم ، التى كانت تتبع الاسكندرية رعويا ، وبالتالى المسيحيين فى حميـــر ، والذين يتبعون الكنيسة الحبشـــية ، وبالتالى الكنيســـة السكندرية ؛ ذلك أن النساطرة القائلين ببشرية العذراء أم المسيح ، المغلبين ناسوت المسيح على لاهوته، على عكس أصحاب الطبيعة الواحـــدة(٦٦) والذين كانوا ينتشرون فى المناطق الشرقية ويحظون بحماية الدولة الفارسية ، سارعوا الى انتهاز هذه الفرصة للتبشير بعقيدتهم فى بلاد اليمن ، حيث كان لهم وجودهم فى جزيرة سوقطرة Sukhatara وفى بعض الموانىء اليمنية(٦٧) .

ومع أن هذا النشاط التبشيرى لم يلق استجابة من جانب مسيحيى تلك المناطق ، الا أن بيزنطة كانت تدرك جيـــدا أن أصابع فارس وراء هذه الجهود التسطورية . ورغم أن الفرس لم يكن يعنيهم فى شىء أمر المسيحية ، بل كان بالتأكيد يغضبهم أن تنتشر هنا أو هناك ، الا أنهم رأوا فى هؤلاء النساطرة ورقة ، ربمـــا تصبح رابحة ، اذا أجادوا اللعب بها فى صراعهم مع الامبراطورية البيزنطية . ولعل أدق وصف لهـــذه الحال ، ما جرى به قلم « جواد على »(٦٨) بما نصـــه « ... كان العالم آنذاك ـ كما هو الآن ـ جبهتين ، غربية وشرقية ، الروم والفرس، ولكل طبالون ومزمرون من الممالك الصغيرة وسادات القبائل (ونضيف نحن ، وزعماء الفـــرق الدينية) ، يطبلون ويزمرون ، يرضـــون أو يغضبون ، يثيبون أو يعاقبون ارضاء للجبهة التى هم فيها . لقد سخر الروم كل قواهم السياسية للهيمنة على جزيرة العرب ، أو ابعادها عن

الفرس وعن الميالين اليهم على الأقل ، وعمل الفـــرس من جهتهم على تحطيم كل جبهة تميـــل الى الروم وتؤيد وجهة نظرهم ، وعلى منـع سفنهم من الدخول الى المحيط الهندى ، والاتجار مع بلاد العرب • وعمل المعسكران على نشر وسائل الدعاية وكسب معركتها والفكر ، فسعى الروم لنشر النصرانية فى الجزيرة ، وحرضوا الحبشة على نصرها ونشرها ، وسعى الفرس لنشر المذاهب النصرانية المعارضة لمذهب الروم والحبشة ، ولتأييد اليهودية أيضا ، ولم يكن دين الفرس يهوديا ولا نصرانيا ، ولم يكن غرض الروم من بث النصرانية أيضا خالصا من الغرض أو بريئا ».

لهذا •• مـا أن اعتـــلى الامبراطور أنسطاسيوس Anastasius (٤٩١ ـ ٥١٨) العـــرش ، وأعلن تخليه تدريجيا عن الأرثوذكســـية الحكومية ـ الخلقيدونية ـ ومالأته للأرثوذكسية المونوفيزيتية ، حتى سعى جهده لدرء هذا الخطر الفارسى المستتر برداء النسطورية ، حيث سارع الى ارسال عدد من الأكليروس ورجال البلاط الى أكســوم واليمن لاقامة عدد من الكنائس بهدف اعـــادة الثقة بين المسيحيين هناك فى السياسة العقيدية البيزنطية ، وجـــذب ملك حمير ثانيـــة الى جانب القسطنطينية بعيدا عن الطموحات الفارسية(٦٩) • ومع أن الامبراطور الجديد جوستين الأول (٥١٨ ـ ٥٢٧) الذى خلف أنسطاسيوس ، قد تراجع عن سياسة سلفه العقيـــدية ، وعاد الى الأخـــذ بالأرثوذكسية الخلقيدونية ، حتى يحظى بتأييد كنيسة القسطنطينية ، ليضـــفى على اعتلائه العرش الامبراطورى شرعية كان يفتقر اليهـــا فى أول عهده ، الا أن الأحداث التى وقعت فى اليمن فى ذلك الوقت ، جـــذبت انتباه القائمين بالأمر فى العاصمة البيزنطية ، وأضاف بعـــدا جديدا للصراع البيزنطى الفارسى حول هذه المنطقة بأكملها •

لقد كانت الدولتان الفارسية والبيزنطية ، مع بدايات القرن السادس الميلادى ، تتربص كل منهما بالأخرى ، ولم يكن ذلك شيئا جديدا ، بل كان امتدادا لتاريخ طويل من الصراع بينهما عبر قرون عـــدة خلت ، يدعمه اختلاف وبالتالى تباعد حضارى كبير بينهما ، وتقارب فى الحدود أو تماس فى بعض المواضع ، يزيد من هـــذا التباعـــد ويؤجج نيران

العداء • وزاد النار ضراما ، انتقال العاصمة الرومانية من على ضفاف التيبر فى الغرب ، الى شطآن البسفور فى الشرق ، لتصبح أنظار الساسة فى القسطنطينية على مقربة جـــدا من مطامح الساسانيين فى طيسفون Ctesiphon (المدائن) ومطامعهم •

وكان أكاسرة الفرس قد وصلوا بدولتهم آنذاك الى درجة كبيرة من القوة السياسية والعســـكرية والاقتصادية ، وراحــوا يهـــددون التخوم البيزنطيـــة والولايات الشرقيـــة للامبراطورية ، وكانت منـــاطق الحدود ، خاصة عند أرمينيا وابيريا ولازيقا ، تعد بصفة دائمة نقاط نزاع مستمر بينهما ، واجتاحت الجيوش الفارسية هذه المناطق أكثر من مرة خلال القرون من الثـــالث الى الخامس ، واذا كانت القسطنطينية قـــد أفلحت فى التصدى فى بعض الأحيـــان لهجمات الفـــرس ، واستعادة سيطرتها هناك ، الا أن ذلك كان يســـبب قلقا دائما وصـــداعا مستمرا لصانعى السياسة البيزنطية •

وزاد من رجحان كفة الفــرس ، أن الجيش الرومانى لقى الهزيمة على أيديهم عام ٣٦٣ ، وقتل الامبراطور جوليان Julianus واضـطر خليفته جوفيان Juvianus (٣٦٣ ـ ٣٦٤) أن يوقع معاهدة مهينة ، تنازل فيها عن عدد من مناطق الحدود الرومانية (٧٠) وزاد الأمر سوءا أنه لم تكد تمضى على ذلك أكثر من خمســـة عشر عـاما ، حتى منيت الامبراطورية بهزيمة مـــروعة على يد القـــوط الغربيين Visigoths الجرمان سنة ٣٧٨ فى معركة أدريانوبل Adrianopolis حيث قتـــل الامبراطور فالنز Valens وخسرت الامبراطورية على أقل تقدير خمسة وأربعين ألف جندى ، واكتسحت العناصر الجرمانية الأخرى ، النصف الغربى من الامبراطورية ، وأقامت على امتداد القرن التالى (الخامس) عددا من الممالك(٧١) ، بحيث فقدت الامبراطورية شطرها ذاك ، ولم يبق لها الا ولاياتها الشرقية المواجهة للدولة الساسانية •

ورغم الجهـــود الكبيرة التى بذلها الامبراطور ثيودوسيوس الأول لاقالةالامبراطورية من عثرتها عقيب هـــذه المذبحة فى أدريا نوبل ،

الا أنه لم يستطع أن يوقف هطـــول الجـرمان على الامبراطورية ، أو يتصدى لأطماع الفرس على جبهته الشرقية ، فاضطر الى عقـــد اتفاقية معهم قضت بتقسيم أرمينية بينهما ، رغم أنها كانت قـد تحولت مؤخرا الى المسيحية • وبموت ثيودوسيوس جاء الطـــوفان ولا عاصم ، حيث ضاع النصف الغربى تحت وطأة ضربات القبائل الجرمانية المتصاعدة ، وخضع الشطر الشرقى لسلسلة من الأباطرة الضعاف الذين عجزوا الى حد كبير عن مواجهة هذه التحديات المتلاحقة ، وانغمسوا حتى آذانهم فى الخلافات الكريستولوجية التى دارت حول طبيعة المسيح ، وشغلت القرن الخامس كله ، وتركت بصماتها واضحة على علاقة القسطنطينية بولاياتها الشرقية ، التى اتخذت فى جملتها ـ كما أسلفنا ـ مذهبا يخالف ما آمنت به العاصمة الامبراطورية •

ولا شك أن فارس وجدت فى هـذه الظروف الســيئة التى تحيط بعدوها التقليدى ، فرصة سانحة لتحقيق أهدافها ؛ فقـد كان يعنيها فى المقام الأول أن تقفز الى الولايات الشـرقية للامبراطورية ، ليصلها ذلك مباشرة بالبحر المتوسط الذى كان يعد المركز الحضارى آنذاك ولفترات تاريخية طويلة ، سابقة على هـــذا التاريخ أو لاحقة • وكان هذا شيئا واضحا تماما فى اتجاهات السياسة الفارسية منذ زمن بعيد ، يعود الى القرن الخامس قبل ميلاد المســيح ، وراحت هـــذه الاتجاهات تزداد وضوحا ، بعد أن اعتلت الأسرة الساسانية عرش الأكاسرة فى القرن الثالث الميلادى(٧٢) • وبعد أن انتقلت حاضرة الامبراطورية الرومــانية الى القسطنطينية منذ القرن الرابع ، وحتى سقوطها فى يد الأتراك العثمانيين فى القرن الخامس عشر الميلادى(٧٣) •

وكانت هناك أمـــور أخـــرى لا تقل عن ذلك أهمية ، فالاطماع الفارسية تجاه المناطق الواقعة على الحدود الشرقية ، والتى كان الفرس يعتبرونها امتـــدادا طبيعيا لدولتهم ، اصطدمت فى القـــرنين الرابع والخامس بزحف الهون Hunni ، القبائل الآسـيوية التى اكتسحت وسط آسيا وامتد طـوفانها الى قلب الامبراطورية الرومانية ، مـــرورا بشمالى فارس عند بحر قزوين • ولم تكد فارس تفيق من ذلك ، بعد أن

لقى الهون هزيمة قاسية على يد روما عند شالون سنة ٤٥١ ، وتصدع « امبراطورية الخيام »(٧٤) هذه بعد مـــوت زعيمها أتيلا Atilla عام ٤٥٣ ، حتى وجدت الى جوارها قوة أخرى تتمثل فى بعض القبائل التركية التى انضمت الى بعضها البعض فيما يشبه اتحادا كونفيدراليا فى منطقة آسيا الوسطى(٧٥) . هذا بالاضافة الى ظهور قوة جماعات الهون مرة أخرى فيما عرف بقبيلة « الهطل » أو الهون البيض ، الذين أوقعوا بفارس هزيمة قاسية عام ٤٨٤ ، واضطروها أن تدفع لهم الجزية حتى منتصف القرن السادس الميلادى(٧٦) .

واستشعرت فارس الخطر داهما ، عنـــدما تحولت كل من ابيريا Iberia ولازيقـــا Lazica الواقعتين على حدودها مع بيزنطة ، والمتنازع عليهما دائما ، منضما اليهما أرمينية ، الى المســـيحية ، بعد اعتناق ملكيهما لهذه العقيدة ، وقصدهما الى القسطنطينية ، وما صحب ذلك من مظاهر الحفاوة البالغة التى لقياها فى العاصمة الامبراطورية، وما أفاض به عليهما الامبراطور من الخلع الثمينـــة والحلى وألقـــاب التشريف(٧٧) ، وتلك كانت احـــدى الدعائم الأساســـية للدبلوماسية البيزنطية(٧٨) . وقد تزامنت هذه الأحـــداث تقريبا (حوالى ٥٢٢ ـ ٥٢٥) مع ما جرى فى اليمن ، وقيام الأحباش بدفع جيوشهم الى هناك.

ومع ادراك الفرس أن الرومان ، عن طريق حلفائهم الأحباش ، قد كسبوا أرضا جديدة فى أقصى الجنوب الغربى لشبه الجزيرة العربية ، مع كل ما تمثله المنطقة من أهمية استراتيجية واقتصادية ، وما أيقنوا أنه يمثل خطرا فادحا ، بتحول مناطق الحدود الشمالية الى المسيحية ، بعد أن سبقتهما أرمينية إلى ذلك منذ القرن الرابع الميلادى ، فقد أقدم الفرس دون توان على احتـــلال ابيـــريا ثم لازيقا سنة ٥٢٦/٥٢٧(٧٩) . ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ أن هذا التاريخ ليس ببعيد عن السنة التى شهدت الغزو الحبشى لليمن (حوالى سنة ٥٢٥) . واذا كانت كل من أكسوم ومن ورائها القسطنطينية قد تذرعتا بحماية المسيحيين فى حمير ، فقد أعلن ملك فارس أن احتلاله لهاتين المنطقتين هو من قبيل حماية معتنقى الزرادشتية فيهما(٨٠) . وتلك مسألة لا تحتاج إلى تعليق حول مناطق

النفوذ ، سواء كان ذلك فى أقصى الشمال عنـــد البحر الأسود وبحـــر قزوين ، أو عند الجنوب القصى فى بلاد العرب السعيدة ، والتى كان كل من القوتين العظميتين آنذاك يسعى للسيطرة عليها فى اطار سياسة التوازن الدولى ٠

وكان طبيعيا أن ترد القسطنطينية على ذلك ، وهى تدرك خطورة اقتراب الفرس من البحر الأسود ، مما يعد تهديدا مباشرا لها ، لذا فقد هاجمت الجزء الفارسى من أرمينيا ، وعادت هذه القوات محملة بالأسرى والغنائم ؛ اذ لم يكن يعنيها آنئذ أن تحتل أرمينيا الفارســـية ردا على احتـــلال الفـــرس لابريا ولازيقا ، بل كان كـــل ما تريده اظهار قوتها لخصمها ، بأنها قادرة على التصدى له بالمثل ، يدفعها الى ذلك شغلها الشاغل المتمثل فى محـــاولة اســـترداد ولايات النصف الغـــربى من الامبراطورية ، والتى كانت قد ضاعت على يد الجحافل الجرمانية ٠

وكانت هذه النقطة الأخيرة مما يزيد الامبراطورية الفارسية ، على عهد ملكها الجديد كسرى أنوشروان Chosroes Anushirvan حنقـــا وغيظا، وهى ترى جارتها تستعيد قوتها وحيويتها على عهد امبراطورها جوستنيان الأول Justinianus I الرومانى القلب والقالب ، والذى كان يؤمن باليقين كله أن امبراطورية رومانية لا يســـتقيم أمرها ولا حتى اسمها ، دون روما القديمة على ضفاف التيبر ، والتى أخضعت جبينها كارهة لقبيـــلة القوط الشرقيين Ostrogoths الجرمانية ، وأن رومـــا الجديدة عند البسفور لا تغنى عن سميتها القديمة شيئا ، ومن ثم وضع نصب عينيه منذ اليوم الأول لاعتلائه العرش ، خلفا لخاله جوستين ، أن يسترد من أيدى الجرمان ، ولايات الغرب الرومانى الضائعة ، مهما كلفه ذلك من جهد ومال ، وليس أدل على ذلك من أن الرجـــل أمضى نيفـــا وخمسا وعشرين سنة ، من فترة حـــكمه البالغة ثمانية وثلاثين عاما ، يدفع بجيوشه وخزائنه لحرب الممالك الجرمانية التى قامت فوق الأرض الرومانية فى الغرب ، كان من بينها ثلاثة وعشرون عاما كاملة (٥٣٣ ـ ٥٥٥) أنفقها فى استرداد ايطاليا وحدها ٠

ولما كانت الدبلوماسية البيزنطية تعتمـــد أساسا فى جوهرها على

عدم خوض حرب فى جبهتين فى وقت واحد(٨١) ، فان جوستنيان لم يعمد ـ كما رأينا ـ الى احتـــلال أرمينية الفارسية ، اذ لم يكن على استعداد للدخول فى حرب سافرة مع فارس ، قـد تؤدى الى معـــركة حاسمة يعرف مقدما أن فرصته فيها قليلة ، مادامت جيوشـــه تعمل فى الغرب ، من هنا ظل حريصا طيلة عهده (٥٢٧ ـ ٥٦٥) على أن تبقى حروبه مع فارس ، مجرد مناوشات على الحـــدود ، تعقبها المفاوضات لعقد هدنة أو اقرار معاهدة للسلام ، يسكت من خلالها جوسننيان خصومه الى حين ، بما يقدمه اليهم من الأموال جزية كل عام • وقـــد نجحت الدبلوماسية البيزنطية على عهد جوستنيان فى هذا المجال نجاحا منقطع النظير ، وان كان على حساب الخزانة الامبراطورية • وهذا واضح تماما من المراسلات التى دارت بين كل من عاهلى فارس وبيزنطه(٨٢) •

كان الفـــرس يدركون ذلك كله جيـــدا ، ويستشعرون خطورة الانتصارات التى قد يحققها خصمهم فى الغرب ، مخافة أن تنتهى الحرب الاسترادادية سريعا ، فتســـتدير القسطنطينية ـ كعـــادتها ـ لمجابهتهم والتفرغ لهم ، وزاد من مخاوفهم أن جوستنيان تمكن من القضـــاء على الثورة الشعبية العارمة التى استهدفت قلب نظام الحـــكم فى أول عام ٥٣٢ ، وخرج منها أقوى بأســـا وأشـد قوة(٨٣) ، ليتربع على عـــرش الامبراطورية من بعد أربعا وثلاثين سنة •

ولم يكن بخاف على جوستنيان ، القلق الذى يستبد بالفرس تجاه مشروعاته الاسترادادية ، ولا كان غافـــلا عن أطماحهم وأطماعهم فى ولاياته الشرقية ، ولا كان على استعداد لخسارة هذه المناطق التى يرتكز عليها اقتصاد الامبراطورية لحساب ولايات الغرب الفقيرة ، وكان يدرك أن الفرس يعانون من ثقل وطأة الجزية التى يدفعونها ســـنويا للهون البيض على حدودهم الشرقية ، ومن ثم كان على استعداد لتعويضهم عن هذا الذى يدفعونه لقاء سكوتهم عن حـــروبه الاسترادادية فى الغرب ، وتركه يتفرغ لانجاز هذا المشروع الضـــخم الذى يعتبر حجر الزاوية فى سياسته الخارجية •

واذا أضفنا الى هذا كله أن العملة الساسانية كانت تضرب بشـــكل

عام من الفضة ، وأنها نادرا ما كانت تســـك من الذهب(٨٤) ، أدركنا لماذا كان يسيل لعاب الفرس للحصول على النقود البيزنطية الذهبية . وتدلنا رسالة بعث بها الملك الفـــارسى قبـــاذ ـ ســـلف كسرى ـ الى جوستنيان ، على صدق ذلك ، فقد ورد فيها : « ... لقد تأكد لدينـــا أننا اخوة يعين أحدنا الآخر فى حاجته ، وعليه اذ دخلنا فى معارك مع أعدائنا المجاورين ، ودفعنا لبعضهم الأمـــوال استرضاء ، فقد أفلست خزائننا ، ولمـــا لم تفلح محاولتنا مع سلفيكم أنسطاسيوس وجوستين ، لتقديم الأموال الينا ، اضطررنا لمهاجمة حدودكم حتى نحـــذركم ، اما الحرب واما المال »(٨٥) .

وكانت الامبراطورية البيزنطية على عهد أنسطاسيوس قد تعهدت فى عام ٥٠٥ ، بمقتضى معاهدة السلام التى وقعتها مع فارس ، بعـــد الهجمات التى تعرضت لها من جانب قباذ ، بدفع مبلغ خمسمائة رطل من الذهب سنويا(٨٦) ، غير أن هذا الرقم ارتفع فى معاهدة السلام التالية التى وقعت سنة ٥٣٢ والتى عرفت بمعاهدة السلام الدائم ، ليصل الى أحد عشر ألف رطل من الذهب سنويا . ولما كان من المستحيل أن يدوم السلام ، فقد قبل جوستنيان فى عام ٥٤٥ مكرها أن يقدم لفارس ألفى رطل من الذهب مقابل عقد هدنة مدتها خمس سنوات(٨٧) . وما أن انقضى أجل الهدنة حتى كان على القسطنطينية عنـــد تجديدها سنة ٥٥١ لمدة خمس ســـنوات أخـــرى أن تدفع ألفين وستمائة رطـــل من الذهب(٨٨) . حتى اذا جاء عام ٥٦٢ وتم توقيع معاهدة سلام جديدة مدتها خمسون عاما ، كان على الامبراطورية أن تدفع ثلاثين ألف رطل من الذهب دفعة واحدة مقدما عن السنوات السبع القادمة ابتداء من عام ٥٦٢ ، وأن تدفع فى بداية السنة الثامنة ، ما يعادل جزية ثلاث سنوات تالية ابتداء من عام ٥٦٩ ، ثم تدفع الأقساط بعد ذلك بانتظام الى نهاية السنوات الخمسين التى حددتها المعاهدة(٨٩) .

واضح اذن أن الفرس كانوا يصرون على استنزاف الذهب البيزنطى التى امتلأت به خزائن الامبراطورية ، والذى حدث عنه المؤرخ المعاصر يوحنا الليدى(٩٠) Ioannes Lydus بقـــوله انه كان آلافا من أرطال

الذهب يصعب حصرها ، وذلك عنـد وفاة الامبراطور أنسطاسيوس عام ٥١٨ ، بينما قدره بروكوبيوس بما يقرب من ثلاثمائة وعشرين ألف رطل من الذهب ، زاد على مدار السنوات التسع التى أمضاها جوستين على العرش ، حسب رواية بروكوبيوس ، على ما ادخره أنسطاسيوس على امتداد عهده البالغ سبعا وعشرين سنة(٩١) ، بالاضافة الى ما جمعه جوستنيان نفسه طيلة أيامه ، وهو كثير ، حتى أمست الخزانة البيزنطية فعلا فى نهاية عهد جوستنيان ، تعانى الافلاس من جراء هـذا النزيف المتدفق باتجاه فارس ، وتيار الانفاق الهادر بلا حساب على آتون الحرب الاستردادية فى الغرب ، بعد أن فشلت خطته القائمة على أن الحرب تأتى بنفقات الحرب ، ثم المنشآت المعمارية الضخمة ، العسـكرية منها والمدنية على حد سواء .

ولعله مما يؤكد حرص الفرس على الذهب البيزنطى ، أنهم راحوا منذ عام ٥٢٩ يثيرون فى مفاوضاتهم مع البيزنطيين ، مسألة استعادة منجمين للذهب كانا يقعان على الحدود بين أرمينيا الفارسية وأرمينيا الرومانية ، مرددين دائما أن الامبراطور أنسطاسيوس كان قد استولى عليهما ، وظلوا يلحفون فى طلبهم رغم توقف المفاوضات أكثر من مرة ، الى أن تحقق لهم ما أرادوا بمقتضى معاهدة السلام الدائم التى وقعت عام ٥٣٢ ، والتى نصت على عودة المنجمين الى السيادة الفارسية(٩٢) .

وكانت لهفة الفرس على العملة الذهبيـة البيزنطية ، وفى الوقت نفسه ، مخاوفهم وطموحاتهم ، كلها فى وقت واحد ، تزداد كلما صكت مسامعهم أنباء انتصارات يحققها جوستنيان فى حـروبه الاستردادية ، فقد أذهلتهم مفاجأة استعادة الامبراطورية لولاية أفريقيا الرومانية من يد الوندال Vandal اثر حملة خاطفة قام بها قائده الأشهر بليزاريوس Blisarius عام ٥٣٣ وعاد منها الى القسطنطينية وفى ركابه الملك الوندالى جليمار Glimer أسيرا ، وبين يديه الكنوز الضـخمة التى كان الوندال قد سلبوها من كنيسة القـديس بطرس فى روما ، عنـد مهاجمتهم لايطاليا عام ٤٥٥ ، عندها لم يتمالك الملك الفارسى نفسه من الغيظ ، فكتب الى الامبراطور البيزنطى يطلب اليه اقتسام هذه الأسلاب

باعتباره شريكا فى صنع هذا النصر ، بالتزامه الحياد بمقتضى معاهدة سنة ٥٣٢ !! والطريف أن جوستنيان رغم اشمئزازه من هـــذا المطلب الفارسى ، الا أنه حقق رغبة العاهل الفارسى وأرسل اليه بعض الأموال فى شكل الهدية على سبيل الترضية !!(٩٣) .

ولم يكد يمضى على ذلك سبعة أعوام ، حتى كان بليزاريوس قـــد نجح عن طريق الخديعة ، فى القبض على ملك القـــوط الشرقيين فى ايطاليا ، ودخول العاصمة راڤنـــا Ravenna ، وهىء للجميع ساعتها أن مملكة الأوستروقوط قد دالت(٩٤) ، فغلت فى عـــروق الساسانيين دماء الغيظ والخوف فى وقت واحـــد ، فاندفعت جيوشهم لا تلوى على شىء ، لتخرب أجزاء متفرقة من الولايات الرومانية الشرقية ، ولتستولى على لازيقا ثانية والجزء البيزنطى من أرمينية ، ولتقفز الى ساحل البحر المتوسط ، المركز الحضارى ، باحتلال أنطاكية فى العام نفسه (٥٤٠) ، لتحقق بذلك حلما طالما راودها ، وان كان ذلك الى حين ، اذ سرعان ما انسحبوا بعد أن قدم لهم جوستنيان عام ٥٤٥ نقوده الذهبية !!

لم يكن أمام الامبراطورية البيزنطية ، رضيت أم كرهت ، الا أن تدفع بسخاء كل ما يطلبه الفرس من الذهب ، وهذا واضح من نصوص الاتفاقيات التى أشرنا اليها من قبل ، فلم تكن بيزنطه تستطيع أن تفعل غير ذلك ، وهى تضع نصـــب عينيها مشروعها الاســترادى الضخم ، ودبلوماسيتها كما علمنا ، ترتكز على عدم الحرب فى جبهتين فى وقت واحد ، ولم يكن الفرس وحدهم فى الميدان يرتجى سكوتهم ، بل كانت هناك شعوب قبلية عديدة تنزل عند حـــدود الامبراطورية فى الشـــمال والشمال الشرقى والغرب ، مثل الهون والعناصر التركية على اختـــلاف مسمياتها ، والآڤار والجبيد واللومبارد وغيرهم .. وكان على بيزنطة أن تستخدم أسلوب الترغيب أو الترهيب هنا وهناك حسب الظروف ، ومن هنا كان الفرس يحتلون المرتبة الأولى فى الأهمية ، حتى لا تعطيهم بيزنطة الفرصة للوصول الى هذه القبائل ، يؤلبونها ضد القسطنطينية .

وكان مما يؤلم القسطنطينية الى جانب هـــذا كله ، أن الفـــرس

يسيطرون على الطريق الرئيسى الذى تسلكه تجارة الحرير القادم من الصين ، عبر وسط آســـيا الى الامبراطورية البيزنطية ، والتى كانت تستورد منه كميات هائلة تستخدمها فى الحياة الاجتماعية والسياسية على السواء • ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تعـــداه الى تحكم التجار الفرس فى كميات الحرير الصينى المتجهة غربا الى بيزنطة عن طريق البحر ، أعنى المحيط الهندى وما وراءه سواء الخليج الفارسى أو البحر الأحمر ؛ فقد كانت سفن هؤلاء التجار تصـــل الى بعض موانىء البحر الأحمر كما أشرنا من قبل ، ومن ثم كانت سيادة فارس على طرق تجارة الحرير القادم الى القسطنطينية برا أو بحرا تمثل غصة فى حلق العاصمة البيزنطية ، التى كانت تعتبر الحرير الصينى ضرورة حياة !!

لقد كانت القسطنطينية فى القرن السادس الميلادى ، وعلى عهد جوستنيان ، تمثل بتعبيرنا الحديث ، باريس عصرها ، مدينة الأضـواء والشهرة الذائعة ، يقصدها القاصى والدانى ، ويؤمها حجيج المعـــرفة وطلاب الحاجات ، والباحثون عن المتعة ، والمولعـــون بالثـــراء ، والساعون للرزق ، تختلط فيها الأجناس ، وتختلف الألسنة ، وتتباين الأفكار • والمترفون من النبلاء ورجال الســـناتو ووجوه البلاط والأسرة الحاكمة ، يتبخترون فى ثيابهم الحـــريرية الرقيقة ، المزدانة بخيوط الذهب والمرصعة بالحلى والأحجار الكريمة !! ويدلون بذلك فى خيلاء على الوفود الأجنبية الآتية من كل صقع ، خاصة القبائل النازلة عنـــد حدود الامبراطورية ، والذين قدموا للبحث عن معاهدة للسلام ، أو هدنة توقف حـــربا ، أو طمعـــا فى ألقاب التشريف ، أو تطلعا الى الخلع الثمينة والهدايا من الحلى والثياب الحريرية ، التى تعتبرها شعوب تلك القبائل ، نوعا من التكريم الرومانى يتنافس فيه المتنافسون !!

وقد أمدنا الامبراطور البيزنطى قسطنطين الســـابع « الأرجوانى المولـــد » Constantinus VII Porphyrogenitus (٩٤٤ ـ ٩٥٩) فى كتابيه الرائعين « عـــن الادارة الامبراطورية De Administrando Imperio و « عن المراسم » De Cerimoniis بمادة علمية وافرة عن مظاهر الترف التى كان يحيـــا فيها البـــلاط البيزنطى ، وعن حاجة

القسطنطينية الماسة دائما لهذا الحـرير لاهدائه الى زعماء الشـعوب القبلية ، دليلا على المودة البيزنطية تجاههم. ويعلق هايد(٥) Heyd على ذلك بقوله « لقد كان البلاط حريصا على أن يعـرض على أنظار برابرة الشمال صلاته التجارية مع البـلدين ، الهنـد والصين . وكلما ضعفت امكانية الايهام باستعراض مظاهر القـوة والجبـروت ، زادت الحاجة الى استخدام مثل هـذه الوسـائل لتأكيد تفوق الامبراطورية الرومانية . ومهما كانت روابط الصداقة بين أميـر بربرى وبين بيزنطة ضعيفة ، فان هذه كانت تهدى اليـه أو الى مبعوثيه أقمشـة حـريرية وأحجارا كريمة وتوابل ، كذلك كانت كميات كبيرة من الحـرير تذهب الى الغرب ، يهديها الامبراطور الى الكنائس أو الى رؤسـاء الأساقفة فيها أو الى بعض الأمراء ليصنعوا منها ثيابهم ، اعلاء لهيبة البلاط » . ويضيف مؤرخنا « من هنا كان الفرس يحرصـون كل الحرص على أن لا يصل الحرير الى بيزنطة بطريق آخر غير الطريق الذى يجتاز بلادهم، أو بأيد أخرى غير أيديهم »(٩٦) . وكيف لا وقد أثروا من هذه التجارة ثراء حسنا(٩٧) . ولذا .. فان الطريق الوحيد للحصول على هذه المادة الخام الثمينة هو الاتفاق مع فارس . وفى هذا السبيل توصل الامبراطور دقلديانوس Diocletianus منذ أواخر القرن الثالث الميـلادى ، الى اتفاق مع الملك الفارسى نارسـيس Narses بحيث أصبحت مـدينة نصيبين Nisibe الفارسية ، السوق الرئيسى للحـرير المستورد من الصين ، ومنها يصدر الى مدن الامبراطورية الرومانية(٩٨) .

ولم تأل الدبلوماسية البيزنطية جهدا فى محاولات لاختراق هـذا الحصار الفارسى لتجارة الحرير ، وفى سبيل ذلك كان جوستنيان حريصا على أن يمد نفوذه الى شبه جزيرة القرم كلها بعد أن كان قاصرا فقط على مدينتى خرسون وبسفور(٩٩) وذلك بالاضافة الى لازيقا واقليم القوقاز، هادفا بذلك الى الالتفاف حول مناطق السيادة الفارسية من أجل الوصول الى الحرير الصينى ، خاصة وأنه قد جرت محاولات بيزنطية للاتصال مع الأتراك فى اقليم ما وراء النهر ، بعد أن تمكن خانات الترك من توحيد آسيا الوسطى تحت سلطانهم ، على النحو الذى أسلفنا(١٠٠) . ولعل هذا هو الذى يفسر بوضوح ذلك النقـد اللاذع الذى وجهه بروكوبيوس

القيسارى فى كتاباته الى الامبراطور جوستنيان ، عند فقدان لازيقا على يد الفرس عام ٥٤٠ ، متهما اياه بالتقصير فى الحصول على المعلومات الضرورية من عيونه حول تحركات الجيش الفارسى مما أدى الى ضياع لازيقا(١٠١) .

وكانت ادارة الخارجية البيزنطية تعلم يقينا ، أن جهودها لحرمان الفرس من الحصول على الأرباح الهائلة التى يجنـــونها بقيامهم بدور الوسطاء فى تجارة الحرير عبر الطريق البرى ، لن تحقق النجاح الذى ترتجيه ، ولذا كانت تتحين الفرص للبحث عن طريق آخر يصلها مباشرة مع مراكز بيع هذه « المادة الثمينة » ، وسرعان ما جاءتها هذه الفرصة على غير توقع ، عندما وضع الأحباش أقدامهم فى الجنوب الغربى لشبه الجزيرة العـــربية ، ولم تتوان القسطنطينية عن تأييد الغـزو الحبشى عسكريا ومعنويا ؛ فقد كانت سيادة حلفائها الأحباش على طرفى البحر الأحمر عند مدخله ، تضمن لهم طريقا بحريا آمنا ، كما أملوا ، للحصول على الحرير الصينى بعيدا عن السيادة الفارسية(١٠٢) .

وليس بخاف على أحد ، أن سيادة اليهود على اليمن قبل الغـزو الحبشى ، كانت تثير الى حد كبير جـدا مخاوف الساسة البيزنطيين ، ليس فقط بدافع العداء بين اليهود والادارة البيزنطية ، وما نتج عنه من اعتداء على التجار الرومان فى اليمن ، ولكن لما قد تمثله هذه السيادة اليهودية من امتداد للنفوذ الفارسى أيضا الى هذه المنطقة الحيوية والهامة بالنسبة لبيزنطة . وتأكدت هذه المخاوف بعد المراسلات التى دارت بين ذى نواس وملك الحيـــرة اللخمى ، الذى كان يدور فى فلك السياســة الفارسية . هذا بالاضافة الى أن أعدادا من يهود الفرس كانوا قد انخرطوا منذ زمن ليس بالقصير فى سلك الخدمة العسكرية فى الجيش الفارسى ، وحظوا بالاحترام ، على حد تعبير المؤرخ الكنسى يوساب Eusebius القيسارى ، من جانب قادتهم(١٠٣) ، وأن جماعات أخرى منهم قـــد عملت بالتجارة وجنت على عهـــد الساسانيين ثروات كبيرة ، باقدامهم على ارسال سفن تجارية تعمل لحسابهم الى منطقة القرن الأفريقى(١٠٤) ، ولهذا رحبت بيزنطة ، بل ولعبت دورا أساسيا فى أن تمد مملكة أكسوم

نفوذها الى الشاطىء الآسيوى للبحر الأحمر ، بدلا من أن يقفز اليهـا ـ عبر اليهود ـ النفوذ الفارسى ٠

ولم يكن من السـهل أن يغفر اليهـــود لبيزنطة دورها فى تدمير مملكتهم الناشئة فى جنوب شبه الجزيرة العربية ، ولهذا فانه بعد مضى أربع سنوات فقط على ذلك ، شرعوا فى تحـــدى الحكومة البيزنطية والخروج عن طاعتها ، عندما أعلنت جماعات السامريين اختيار جوليان Julianus ملكا عليهم سنة ٥٢٩ ، وأوقعـــوا بالمسيحيين فى نابلس Neapolis وبيســـان Scythopolis وقتلوا منهم أعدادا كبيرة(١٠٥) ، منتهزين فرصة الحرب الدائرة يومئذ بين فارس وبيزنطة ، مؤملين أن يمد لهم الفرس يد المساعدة ، غير أن جوستنيان سرعان ما فوت عليهم هذه الفرصة بالدخول فى مفاوضات مع الفرس ، وأوعز فى الوقت نفسه الى الحارث بن جبلة ملك الغساسنة الذى كان يدين بالولاء لبيزنطة ، أن يتصدى لهذا التمرد اليهودى ، ونجح الحارث ومعه القوات البيزنطية فى اخماد هذه الفتنة واعادة الهدوء الى فلسطين(١٠٦) ٠

على هذا النحو كان جوستنيان يدرك ضرورة الأخذ على يد اليهود بشدة ، حتى لا يشكلوا له طابورا خامسا داخل دولته ، وعونا للفرس عليه ، ومن ثم جاءت خطوته الهامه التالية ، وهى ضرب تجمع تجار اليهود فى جزيرة تيران عند مدخل خليج العقبة ، حيث كانت الجزيرة موضعا لتحصيل الجمارك فى الامبراطورية ، وكان العـائد ســـواء من التجارة أو حصيلة الخدمات التى تقوم عليها ، تشكل دخـــلا وفيرا ٠ وكانت أعداد اليهود فى هذه الجزيرة قد ازدادت بصورة تلفت الانتباه، خاصة بعد تدمير مملكة ذى نواس وفرار عدد من اليهود اليمنيين اليها واحتمائهم بها ، الى الحد الذى دفع التجار المسيحيين فيها الى الاحتجاج على هـــذه المضايقات التى يلقونها من جانب اليهود ، ولقيت هـــذه الاحتجاجات آذانا صاغية لدى الامبراطور جوستنيان ، فأقدم فى عام ٥٣٥ على تدمير هذه المستوطنة اليهودية ، وقضى على نفوذ اليهود فيها، حتى يصبح الطريق التجارى البحرى من رأس البحر عند تيران والقلزم آمنا حتى مدخله فى الجنوب ٠ وقد مثلت هذه الخطوة أهمية سياسية

(مجلة المؤرخ العربى)

واقتصادية كبيرة لدى بيزنطة ، حتى أن مؤرخا مثل Sharf (١٠٧) اعتبرها تتمة طبيعية لتدمير مملكة ذى نواس فى اليمن ٠

وكان جوستنيان قبل ذلك ، وفى سبيل تأمين هذا الطريق التجارى ، وتخليص تجارة الحرير من التبعية للفرس ، قد أرسل فى عام ٥٣٢/٥٣١ وفدا الى مملكة أكسوم ، ليطلب الى الأحباش أن يقوموا هم بشراء الحرير من الهند ، ثم يقومون هم ببيعه للبيزنطيين ، فيصبحون على هذا النحو وسطاء حلفاء ، بدلا من الفرس ، وتذهب اليهم الأرباح التى تجنيها منها فارس(١٠٨) ٠ وقد أبدى الأحباش استعدادهم للقيام بهذا الدور ، غير أنهم كانوا فى الوقت نفسه عاجزين عن الوفاء بذلك ، حيث أن التجار الفرس ، الذين كانوا قريبين من مركز تجمع الحرير فى سيلان ، درجوا على شراء كل شحنات الحرير القادمة من الصين ، فلم يجد تجار الأحباش شيئا يبتاعونه ، هذا بالاضافة الى أن أهل سيلان الذين اعتادوا التعامل مع التجار الفرس منذ عهد بعيد ، لم يشاءوا الاساءة الى هؤلاء عن طريق التعامل مع منافسيهم الجدد(١٠٩) ٠ وهكذا ظل الفرس دون منازع ، يحتكرون هذه التجارة الى ما بعد منتصف القرن السادس الميلادى ، حتى تمكن الامبراطور جوستنيان ، الذى لم يفتأ يبذل المحاولات للخلاص من هذه التبعية الاحتكارية لفارس ، من الحصول على بيض دود القز وبذور شجر التوت ، عن طريق بعض الرهبان المسيحيين ، الذين كانوا قد توغلوا الى وسط آسيا حتى مملكة خوتان Khotan وذلك حوالى عام ٥٥٢ للميلاد(١١٠) ٠

غير أنه كان على بيزنطة أن تتحمل لسنوات طويلة قادمة ، تحكم الفرس فى هذه التجارة ، لأن الطلب البيزنطى على الحرير الصينى ، كان يزداد بصفة مستمرة ، ولم يكن بمقدور هذه الصناعة البيزنطية الناشئة أن تفى باحتياجات الامبراطورية للحرير ، لاستخدامها المتزايد له ـ كما أسلفنا ـ فى الأغراض السياسية والاجتماعية على السواء ٠ لهذا لم يكن أمام القسطنطينية والحالة هذه ، الا أن تكثف نشاطها الدبلوماسى فى الجنوب عن طريق حلفائها الأحباش ، الذين يسيطرون الآن على ساحلى البحر الأحمر عند مدخله ٠

وفى سبيل ذلك جدد جوستنيان سـفارته برئاسة مبعوثه جوليان حوالى سنة ٥٣١ الى ملك أكسـوم والى « السميفع » Esimiphaeus الذى يذكر المؤرخ المعاصر بروكوبيوس ، أن الأحباش قد اختاروه ليكون ملكا على حمير ، تحت نفوذهم ، خلفا لذى نواس(١١١) • وقد أمل الامبراطور البيزنطى من وراء بعثته هذه أن يجد تجاوبا لدى الأحباش بهدف لفت أنظار الفرس الى تلك المناطق عن طريق جرهم الى الدخول فى مناوشات عند منطقة الخليج ، ليخفف الضغط على قواته عند الجبهة الشمالية الشرقية • وبلغت به الآمال مبلغا كبيرا عنـدما سعى جاهدا ليحقق تقاربا بين قوات الأحباش فى اليمن والقبائل العربية فى نجد ، مثـل « المعـديين » Maddeni وذلك للتعاون من أجل الوصول بقواتهم معا الى شرقى شبه الجزيرة العربية ، تهديدا للأراضى الفارسية والنفوذ الفارسى(١١٢) • ورغم الوعود الطيبة التى عاد بها جوليان الى سيده ، الا أن شيئا من ذلك لم يتحقق ، فالأحباش ـ بغض النظر عن كونهم لا يستطيعون مواجهة الجيـوش الفارسية المتفوقة عليهم عددا وعدة ، لم يكونوا راغبين أصلا فى الدخول فى حرب مع الفرس على الجانب الشرقى لشبه الجزيرة العربية دون فائدة حقيقية ملموسة تعود عليهم ، واعتبروا ذلك ـ على حد تعبير بروكوبيوس ـ صفقة المغبون ، فى أن يقطعوا هذه الصحراء من أجل شن حرب ضد أناس أشـداء فى الحرب(١١٣) ولم تكن القبائل العربية فى نجد بأقل من الأحباش تبصرا بنتائج هذه المغامرة غير المأمونة(١١٤) •

غير أن هذه الجهود الدبلوماسية البيزنطية المكثفة مع مملكة أكسوم وشيوخ القبائل العربيه فى شبه الجـزيرة ، لم تكن لتغيب عن أعين الساسانيين فى فارس ، وهم يقدرون تماما مدى خطورة امتداد النفوذ البيزنطى الى قرب حدودهم الجنوبية الغـربية • واذا كانوا قد ضمنوا سيطرتهم الاحتكارية على طريق الحرير عبر وسط آسيا ، وحققوا نجاحا كبيرا فى استنزاف الخزانة البيزنطية عن طريق المكوس الجمركية على هذه التجارة وغيرها ، والجزية السـنوية التى يحصلون عليها ، فانه لا ضير أيضا أن يمدوا أصابعهم وأنفهم الى هذه المنطقة ، حتى تكتمل

حلقات الحصار الاقتصادى لأهم سلعة بالنسبة لبيزنطة فى زمانها ، حول عدوهم التقليدى ، الامبراطورية البيزنطية ٠

من هنا كان الاحتفال باتمام ترميم ســـد مأرب حوالى عام ٥٤٢/ ٥٤٣ فرصة سانحة كى يسارع الفرس بارسال وفود التهنئة الى أبرهة ، الذى غدا الآن حاكما فعليا مستقلا بحكم اليمن ، ضمن سيادة واهنة لملك أكسوم(١١٥) ٠ وحث الفرس حليفهم ملك الحيرة ، المنذر الثالث ، أن يحذو حذوهم ، ففعل ٠ ولم تكن بيزنطة لتترك الساحة للفرس على هذا النحو ، فى منطقة تعتبرها ضمن مناطق نفوذها عن طريق حلفائها ؛ فقدم وفد الامبراطور البيزنطى الى اليمن تحف به وفود الحلفاء ، أعنى الحارث الغسانى وأبا كارب شيخ عرب فلسطين الثالثة(١١٦) ٠ هكذا وجد أبرهة نفسه محاطا برسل أقوى دولتين فى زمانه ، ومن يدور فى فلكيهما ، والكل جاء يخطب وده ويرجو مودته !! مما ترك أثرا بعيدا على شخصيته ، ظهر واضحا بعد ذلك فى سياسته ٠ لكن الذى لاشك فيه أن كلا من فارس وبيزنطة ، كان يطمح فى أن يفسح لنفسه نفوذا عنـد المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ٠ ولم يكن أبرهة نفسه بغافل عما يدور فى أذهان هؤلاء وأولئك ، وما تبديه أحاديثهم اليه ، ومن ثم أحســن استقبال الجميع ، لكن أيا من الوعود التى قطعها على نفسه ، خاصة لمن هم على عقيدته ، لم يشأ أن يحقق منها شيئا ٠

لقد كان أبرهة يدرك من اجتماع هذه الوفود لديه كلها فى آن واحد ، رغم العداء الذى يضمره كل منهم تجاه الآخر ، أن الدخول فى لعبة صراع القوى العظمى هذه ، سوف تفقـــده مكانته المستقلة ومركزه الذى يتمتع به ، فى هذه المنطقة الحيـــوية لكل من القوتين ، وهو لم يتحرر من نفوذ سيده المباشر ، ملك أكسوم ، وان كان قد أبقى على حبل ضعيف يتمثل فى الجــزية ، ليقع فى أيدى الفـــرس أو البيزنطيين ، وليدخل فى دوامة التبعية التى قد لا يفيق منها أبدا مادام الصراع قائما بين المعسكرين ٠ ورغم أن هـــواه كان مع البيزنطيين بحكم العقيدة ، الا أنه لم يغامر باظهار العداء السافر تجاه الفرس تحسبا لقوتهم العسكرية التى يعلم ابرهة قدرها ٠

والغريب فى الأمر ، والذى يدعو للدهشة فى الوقت نفسه ، أن السياسة البيزنطية ساهمت ، دون قصد ، على أن يسلك أبرهة هذا المسلك المتحفظ تجاهها ، بل والمستقل . فمن المعروف - كما قدمنا - أن السياسة البيزنطية كانت تعتبر الأسقف المسيحى رأس جسر طبيعى وضرورى للنفوذ السياسى للامبراطورية فى أى منطقة من العالم المحيط بها ، قرب أم بعد هذا العالم ، وطبقت ذلك الأسلوب باقتدار ونجاح فى مناطق كثيرة ، الا أنها هنا سلكت - على غير عادتها - سلوكا مغايرا سبب لها بعض العراقيل فى طريق تدعيم النفوذ الذى تؤمله . وقد يبدو للوهلة الأولى من الرؤية المتعجلة للأحداث ، أن الدبلوماسية البيزنطية قد أصيبت هنا بقصر النظر ، لكن شيئا من ذلك ليس ورادا فى عصر وصف فيه جوستنيان بأنه يعد بحق أستاذ الدبلوماسية البيزنطية(١١٧) . لكن الظروف التى كانت تعيشها بيزنطة عندئذ ، هى التى ساهمت بنصيب كبير فى الاخفاق الذى اعتراها فى هذه المنطقة .

لقد كان الخلاف العقيدى - كما أسلفنا - قائما بين كنيسة القسطنطينية من ناحية ، وكنائس ولايات الامبراطورية الشرقية فى سوريا ومصر من ناحية ثانية ، وكانت كنيسة أكسوم تدين بما تؤمن به الاسكندرية ، وأصبح للاسكندرية منذ القرن الرابع الاشراف الرعوى على الكنيسة الحبشية ، ومن هنا توجه ملك أكسوم الى تيموثى Timotheus الأسقف السكندرى (٥٢٠ - ٥٣٦) يطلب اليه أن يرسل من لدنه أسقفا ، له من المهابة ما لراعيه ، ليصحب الحملة المتجهة الى اليمن(١١٨) ، ولم يتوان تيموثى ، فأرسل على الفور أسقفا يصحبه عدد من القسيسين ، بهدف اعادة تنظيم الكنيسة فى اليمن بعد الأحداث التى تعرضت لها على يد ذى نواس(١١٩) . ولا شك أن هذا الأسقف كان من أصحاب الطبيعة الواحدة ، الا أن فترة مكثه هناك لم تدم طويلا ، اذ سرعان ما مات ، ودارت المراسلات من جديد فى سبيل الحصول على من يرعى كنيسة اليمن بدلا منه .

غير أن هذه المراسلات توقفت فجأة ، وأعلن أبرهة رفضه استقبال أسقف جديد(١٢٠) ، وكان ملك أكسوم قد سلك فى الوقت نفسه ذلك السبيل(١٢١) . بل ان الأمر وصل الى حد قتل الأسقف الذى أرسله

الامبراطور البيزنطى الى أكسوم بعد وصوله اليها بوقت قصـير(١٢٢) ولا شك أن هذا التصرف من جانب ملكى أكســـوم واليمن ، يعود الى تغيير جذرى فى السياسة العقيدية أقدمت عليه القسطنطينية ٠

لقد كان الامبراطور جوستنيان يضع نصب عينيه مبدأ لا يبغى عنه حولا ، يتلخص فى القول بدولة واحدة وقانون واحد وكنيسة واحدة ، وفى النقطة الأخيـــرة ، فانه بايمانه المطـــلق بالقيصرية البـــابوية Caesaropapism كان يعتقد يقينا بأنه وحده له الحق فى اختيار المذهب الذى تدين به رعيته ٠ غير أن السياسات الدولية فى زمانه اضطرته فى كثير من الأحيان الى عدم الثبات على اتجاه واحد فى المسألة الدينية ٠ كان الامبراطور كما يصفه المؤرخون ، آخـر الأباطرة الرومان(١٢٣) ، رومانى القلب والقالب ٠ كان قلبه يهوى الغرب ، لكن بصره كان معلقا بالشرق ، وبين قلب الامبراطور وبصره ، تأرجحت فى العقيدة سياسته٠

فقد أقدم جوستنيان فى أول عهده على ممالأة أصـــحاب الطبيعة الواحدة ، أو بتعبير أدق ، أهالى الولايات الشرقية ؛ ذلك أنه كان مقدما على الدخول فى حرب « المناوشات » مع فارس ، ومن ثم حرص على استرضاء أهالى هذه الولايات ، حتى لا يسمح للنفوذ الفارسى أن يمتد اليها ، فيشكلون شوكة فى ظهره أثناء مواجهته للفرس ، حتى اذا انتهى الأمر بعقد معاهدة السلام الدائم عام ٥٣٢ ، وأمن جوستنيان ـ ولو الى حين ـ جانب الفرس ، وبدأ مشروعه الضخم لاسترداد ولايات الغرب ، أصبح فى حاجة ماسة للحصول على تأييد البابا فى روما ، حتى يضمن وقوف شعب الكنيسة الرومانية فى ولايات الغرب الى جانبه ٠ ولما كانت كنيسة روما تدين بالخلقيدونية ، فقد أدار ظهـــره الآن لكنائس الشرق ورعاياها وراح يعـــزل الأســـاقفة المنافزة فى القسطنطينية وأنطاكيـــة والاسكندرية ، ويحل محلهم أساقفة خلقيدونيين(١٢٤) ٠

وكان الأســـقف الســـكندرى ثيودوســـيوس الأول Theodosius I (٥٣٦ ـ ٥٣٨) الذى خلف تيموثى ، ممن شملهم قرار العزل ، ليحل محـــله أســـقف جـــديد يدعى بولس (٥٣٨ ـ ٥٤٢) يدين بالمذهب الخلقيدونى(١٢٥) ٠ ولعل هذا هو الذى يفسر لنا الآن ، اقدام كل من

ملك أكسوم وملك اليمن على رفض استقبال الأساقفة الخلقيدونين الذين أرسلهم جوستنيان أو حاول ارسالهم ، وظلت كنيستا أكسوم واليمن شاغرتين قرابة خمسة وعشرين عاما(١٢٦) .

ورغم أن أبرهة كتب الى الامبراطور جوستنيان،يطلب اليه ارسال أسقف يكون المسيحيون هناك على استعداد للتعامل معه ، أى يدين بمذهبهم ، الا أن جوستنيان رفض ذلك ، أو لعله راح يماطل فى تحقيق هذا المطلب(١٢٧) ، رغم أنه كان مهتما جدا - كما نعلم - باستمالة مملكتى أكسوم واليمن الى صفه للوقوف معه فى صراعه مع فارس . غير أن حلم الامبراطور البيزنطى وطموحه لاسترداد ولايات النصف الغربى من الامبراطورية ، أملى عليه سياسته العقيدية على هذا النحو ، مما أعطى الفرصة لأبرهة نفسه ، أن ينهج نهجا مستقلا الى حد بعيد فى سياسته الخارجية ، وان كان هذا لم يؤد بالضرورة الى تقطع حبائل العلاقات الودية بين القسطنطينية وصنعاء .

لقد كان مما يعنى القسطنطينية فى المقام الأول ، أن يظل نفوذها السياسى ممتدا الى هذه المنطقة ، وأن يبقى أبرهة حليفا ضد المدائن ، بل ان أبرهة نفسه كان حريصا الحرص كله على أن تظل علاقاته السياسية والاقتصادية طيبة مع بيزنطة ، حتى يضمن وقوفها دائما الى جانبه ، خاصة وهو يعلم أن ملك أكسوم لم يكن ليغفر له استقلاله بالأمر دونه فى اليمن(١٢٨) ، وان كانت ظروفه العسكرية لم تسمح له بالتخلص منه . ولذا لم يترك أبرهة الفرصة لهذه الخلافات المذهبية بين صنعاء والقسطنطينية أن تؤثر فى طبيعة العلاقات بين الحليفين . بل ان بعض الباحثين يذهب الى القول بأن أبرهة ربما يكون قد قبل فى نهاية الأمر، أمام اصرار جوستنيان ، وحتى لا يفقد صداقته ، وجود أسقف خلقيدونى فى مملكته(١٢٩) .

كان أبرهة يدرك تماما الأهمية الاستراتيجية التى تحتلها المنطقة التى يسيطر عليها فى الجنوب الغربى لشبه الجزيرة العربية ، ويعى بصورة واضحة المكانة التجارية التى تمثلها اليمن فى عالم الاقتصاد الدولى آنذاك ، وبالتالى الصراع السياسى بين أكبر قوتين فى زمانه ،

ورأى ـ كى يفلت من الدوران فى فلك أى منهما ، أن يحاول وضع قدم له بين العملاقين ، واذا كانت بيزنطة تسيطر بأسطولها فى القلزم وتيران على البحر الأحمر ، وتتحكم فارس بسفنها فى تجارة الخليج والمحيط الهندى حتى سيلان ، وبموقعها ، على الطريق البرى عبر وسط آسيا ، فلم لا يقدم هو الآخر على البحث عن طريق يخضـــعه لسلطانه ، وهو الطريق الذى كان قائما منذ زمن بعيد ، والذى يبدأ من صنعاء ويتجه شمالا ليمر بالمدن الرئيسية كالطائف ومكة ويثرب الى دمشق ، وهو الذى يربط اليمن بعالم البحر المتوسط ، والسيطرة على هذا الطريق تحقق دون شك فائدة اقتصادية هامة للجنوب العربى .

ولا شك أن اقدام أبرهة على نقل عاصمة اليمن من ظفار (حاضرة الحميريين) الى صنعاء التى تقع الى الشمال ، كان خطوة على هـــذا الطريق ، وامتد اهتمامه الى مأرب ليعيد ترميم ســدها الشهير ، ويقيم فيها قصرا وكنيسة(١٣٠) . وكانت الخطوة التالية بلوغا الى الشام ، تعنى القفز على مكة ، المركز النجارى الهام لمنطقة شبه الجزيرة العربية كلها ، وقبلة الحجيج الى الكعبة بأوثانها قبل الاسلام ، ومنتدى الشعراء والفصحاء والبلغاء بأسواقها الثقافية . ولم يكن الوثوب الى مكة آنئذ بالأمر الهين أو اليسير ، فهذا يعنى أن تتوحـــد القبائل العربية الوثنية كلها ضـــد ذلك الملك المسيحى الذى يريد بهـم وببلدهم وآلهتهم شـــرا مستطيرا ، حتى وان لم يؤد هذا التوحد الى احتجاج عملى حاسم ، فانه سوف يحمل فى جوهره مشاعر عدائية بالغة تجاه أبرهة ، فى وقت كان هو وحلفاؤه البيزنطيون حريصين على استمالة هذه القبائل ضـــد عدوهم المشترك ، الفرس . وكان جوستنيان من جانبه قد سار فى ذلك خطوات واضحة واسعة ، فالغساسنة يمثلون بالنســبة له ، خط دفاعه الأول ضد فارس ، أو بتعبير آخر ، « دولة حاجزة » فى مقابل المناذرة اللخميين فى الحيرة ، الذين كانوا يلعبون الدور نفسه بالنسبة للفرس . ونادرا ما كان العـــداء بين القبيلتين العربيتين يتوقف حتى فى أوقات الهدنة بين فارس وبيزنطة !!

ولم يتردد جوستنيان فى أن يخلع على الحـــارث بن جبلة لقب الملك عام ٥٣٠ ، جزاء الحسنى على ما أظهـــره من ولاء للامبراطورية

أثناء حروبها مع فارس(١٣١) ، واشتراكه مع القـــوات الرومانية فى اخماد فتنة اليهود عام ٥٢٩ ٠ وفعل الامبراطور نفس الشىء أيضا مع أبى كارب بن جبلة الذى كان يسيطر على عرب فلسطين الثالثة ، الغنية جدا بنخيلها مثل تيماء ، مثلها مثل مناطق بنى كلب فى الشمال من صحراء النفود ٠ وقـــد اعتـــرف به جوســـتنيان حاكما معاهدا Foederatus على هذه المنطقة(١٣٢) التى تعود أهميتها أيضـــا الى سيطرتها على المراكز التجارية الهامة للتجارة البيزنطية فى البحر الأحمر ، مثل ميناء الحوراء وتيران ، شأنها فى ذلك شأن تبوك وتيماء ومدائن صالح(١٣٣) ٠ هذا كله بالاضافة الى سعى جوستنيان لاستمالة قبائل المعديين فى نجد عن طريق استقطاب شيخهم قيس ، الذى دكرنا أمره آنفا ٠

وليس بخاف أن تجار مكة كانوا يقومون برحلتى الشتاء والصيف الى اليمن والشام(١٣٤) ، وأن هذا الأمر ، بالاضافة الى وجـود البيت الحرام ، قد رفع من قـــدر مكة وزعمائها القرشيين فى أعين القبـائل العربية كلها ، وأصبح لهم من المكانة والمهابة قدراً كريماً ٠ ومن المعروف أيضا أنهم فى رحلتهم الى الشـام كانوا يصـــلون الى بصرى ، حاضرة العربية الشمالية ، بعد أن يدفعوا مكوسا معينة تســـمح لهم بالمرور الى الأراضى البيزنطية ، أو الواقعة فى فلكهم ٠ وعلى طبيعة هـــذه العلاقة التجارية كانت تتوقف العلاقات السياسية ؛ اذ قـــد يقع الضرر أحيـانا بالتجار العرب من جـــراء زيادة المكوس الجمركية ، لكن بيزنطة كانت تحرص دائما على استرضاء عرب الحجاز هؤلاء ، لفتح المجال للتجار البيزنطيين للمرور عبر بلادهم الى الجنـــوب ، أو لاستخدام نفـوذهم ومكانتهم فى نفوس القبائل لمنعهم من الاغارة على الحـــدود البيزنطية الجنوبية(١٣٥) ٠ ويذكر بعض الباحثين أنه كان يوجد فى مكة بيوت تجارية بيزنطية تزاول الشـــئون التجارية الخاصة بالامبراطورية ، كما كان فيها أحباش يرعون مصالح قومهم التجارية ، حتى عرفت مكة بأنها « بندقية العرب »(١٣٦) ، هذا بينما كان الفـــــرس يستعينون بعرب الحيرة لحماية قوافلهم التجارية المتجهة الى قلب الجزيرة العربية(١٣٧) ٠

وقد ساعد هـــذا كله زعماء مكة على عقـــد معاهدات تجارية مع

الشعوب المجاورة ، فعقد بنو عبد مناف معاهدات لقريش ، منها مثلا ما عقده هاشم مع ملوك الشام ، وما عقده عبد شمس مع ملك الحبشة ، ونوفل مع فارس ، والمطلب مع حمير ، ليفد العرب على هذه البـــلاد كلها(١٣٨) ، لهذا كله كانت مـكة تشـــكل بموقعها الجغرافى ومركزها الاقتصادى ومكانتها السياسية ، أهمية خاصة لدى البيزنطيين والأحباش فى اليمن على السواء ؛ فالقسطنطينية تعتبرها واسطة العقد فى سلسلة مناطق النفوذ بلوغا الى الجنوب ، بينما أبرهة ينظر اليها ضمن منطقة تهامة كلها والمنطقة الساحلية ، على أنها بصورة تقليـــدية واقعة ضمن مناطق سيادة حكام اليمن ، من ناحية كونها ضرورية لتأمين الطـــريق التجارى الذى يصلهم بالشام ٠

لم يكن أمام أبرهة اذن والحالة هذه ، اذا أراد تجنب سخط القبائل العربية ، لما قد يحدثه وثوبه على مكة ، الا أن يسلك سلوكا آخر يفضى الى تقليص دور مكة التجارى تدريجيا ، وتقله الى صـــنعاء ، وصرف أنظار العرب عنها عتيديا ببناء كنيسة فى عاصمة ملكه ، يطوف العرب بها كما يفعلون عند الكعبة فى مكة ، فيضمن بذلك أيضـا تحويلهم الى المسيحية ٠ وشمر ملك اليمن عن ساعد الجد ، فابتنى كنيسة ضخمة فى صنعاء(١٣٩) عرفت باسم « القليس » Al-Qullais (١٤٠) ونقـــل اليها بعض آثار شهداء نجران ليضفى عليها ـ كما للكعبة ـ نوعا من القداسة(١٤١) ، وأصدر عددا من المراسيم يوجب بمقتضاها على العرب الخاضعين لسلطانه ، الحج الى هذه الكنيسة ، بينما أرسل بهذا المعنى وفودا الى المناطق العربية الخارجة عن نفوذه ، مؤملا بذلك أن يحول الحجيج من مكة الى صنعاء(١٤٢) ٠

وداعبت الأحلام والآمال أبرهة فى أن ترث صنعاء مكة ، وأن تحل المسيحية محل الوثنية ، متناسيا أن الصحراء العربية الواسعة وقفت حائلا منيعا أمام امتداد المسيحية الى داخل شبه الجزيرة العربية بعد أن وقفت عند أطرافها فقط(١٤٣) ٠ وبالتـــالى نجت من الوقوع تحت السـيادة البيزنطية ٠ بالاضافة الى أن طبيعة المسيحية نفسها لم تكن تتفق فى كثير من جوانبها مع واقع الحياة القبلية عند العرب ٠ ورغم احتكاك التجار العرب فى رحلتى الشـتاء والصيف ، بالمسيحيين فى اليمن والشـــام ،

الا أن سادات مكة حافظوا على وثنيتهم ، لارتباطها بمركزهم السيادى بين القبائل العربية ، باعتبارهم سـدنة الكعبة وحماة الأرباب • ومن ثم كان أمرا دونه خرط القتاد أن تولى القبائل العربية مكة دبرها متحرفة الى صنعاء ، حتى وان فاقت كنيستها الكعبة بهاء وفخامة •

وأدرك أبرهة بمضى الوقت أن مشروعه الضخم هـذا لن يكتب له النجاح ، وأنه اذا بقيت مكة وكعبتها ، فلن تقوم لصنعاء و « قليسها » قائمة • ومن ثم فقد عزم على أن ينفذ ما كان من قبل يراوده ، من القفز مباشرة على مكة للقضاء على مكانتها سياسيا واقتصاديا وعقيـــديا فى نفوس القبائل العربية ، وليخلو الجو لمنافستها ، صنعاء • هذا بالاضافة الى أنه سوف يحقق بذلك لنفوذه امتدادا سياسيا يصله مباشرة بالمتلكات البيزنطية فى جنوب الشام وشمال شبه الجزيرة • ومما لا ريب فيه أن الامبراطورية البيزنطية نفسها كانت تجد فى هذه الحملة التى يشـــنها أبرهة على مكة لاخضاعها لسلطانه ، خطـــوة فى سبيل تحقيق أهدافها بالوصول الى الجنوب العربى عن طريق ربط هذه المناطق ببعضها ابتداء من فلسطين الثالثة ووصولا الى أقصى الجنوب فى اليمن ، مرورا بمكة • ويعلق جواد على على ذلك بقوله : « وهكذا يحقق البيزنطيون والأحباش نصرا سياسيا واقتصاديا كبيرا ، فيتخلص البيزنطيون بذلك من الخضوع للأسعار العالية التى يفرضها الساسانيون على الســلع التجارية النادرة المطلوبة ، والتى احتكروا بيعها لمرورها ببلادهم ، اذ سـترد اليهم من سيلان والهند رأسا عن طريق بلاد العرب(١٤٤) •

ورغم ما تورده المصادر العربية ، من أن قيام أبرهة بمهجامة مكة ومحاولة هدم الكعبة ، انما جاء انتقاما لمـــا أوقعه أحـــد رجال كنانة بالقليس(١٤٥) ، الا أن هذا لا يمكن مطلقا أن يكون سببا كافيا لهـــذه الحملة ، حتى وان صـــحت الرواية • لكن علينـــا أن نبحث عن هـــذه الأسباب فى محاولة بسط نفوذه السياسى على هـــذه المنطقة الهامة ، استكمالا لسيادته على اليمن واستقلاله بها عن ملك أكسوم ، ولتحقيق الرخاء الاقتصادى لدولته فى الجنوب العربى ، واسهاما فى الوقت نفسه فى تحقيق آمال حلفائه البيزنطيين بالتخلص من الاحتكار التجـــارى الفارسى للسلع الثمينة والهامة للامبراطورية البيزنطية •

ولا شك أن نجاح أبرهة فى مد نفوذه الى مكة ، ووصـــل ما بينه وبين ممتلكات البيزنطيين فى الشام ونفوذهم فى أقصى شـــمال شـــبه الجزيرة العربية ، كان يشكل للدولة الفارسية تحديا خطيرا من الناحيتين السياسية والاقتصادية ، اذ تصبح هـــذه القوة الجـــديدة خصما مخيفا لفارس(١٤٦) خاصة اذا دانت القبائل العربية فى نجد والمناطق المجاورة لها على ساحل الخليج بالسيادة للبيزنطيين والأحباش(١٤٧) ، ولهذا كانت فارس تنظر بعين الحذر الدائم ، والقلق والترقب ، لكل ما يجرى حولها فى منطقة شبه الجزيرة العربية .

غير أن الحملة الضخمة التى قادها أبرهة بنفسه الى مكة ، ووفر لها الاستعدادات العسكرية الضخمة ، وجلب لها الأدلاء تيسيرا للمسيرة فى دروب لا يعرفها ، أصيبت بالفشـــل ، وحققت اخفاقا كاملا(١٤٨) ولم ينج من جيش أبرهة الضخم الا النذر اليسير ، حتى أبرهة نفسه مالبث أن مات ، وقد تقطعت أكباده فرقا وحزنا على هـــذه الخسارة الفادحة التى منى بها ، وعلى ضياع آماله وطموحاته ! ولم يكن لدى البيزنطيين آنذاك القدرة على مد يد العون له ، كما حدث عند الغزو الحبشى لليمن؛ فقد كانت بيزنطة غارقة حتى آذانها فى مشاكل حدودها مع جيرانها التى لا تنتهى أبدا(١٤٩) بالاضافة الى الاستنزاف المادى الذى كانت تتعرض له من جراء الجزية الذهبية السنوية التى تقدمها لفارس . وقبل هذا كله فقد كانت الدوائر العسكرية البيزنطية تضع نصب عينيها الاخفاق الذى حاق بالحمـــلة الرومانية التى قـادها والى مصر آيليوس جاللوس فى نهايات القرن الأول قبل الميلاد ، بسبب الطبيعة الجغرافية القاسية لهذه المناطق . ورغم ما اعترى بيزنطة من خيبة الأمل لفشل هذه الحملة . الحبشية ، الا أن آمالها هناك لم تخب أبدا .

على أن أهم ما فى الأمر ، أن هذا الفشل ، انعكس بصورة واضحة على الوجود الحبشى نفسه فى الجنـــوب العـــربى ، وبالتالى المصالح البيزنطية ؛ فقد خلف أبرهة ولداه يكسوم ومسروق على التوالى ، ولم يكن لأيهما شخصية أبيه ، فوقعت اليمن فى الفوضى وشهدت الكثير من الاضطرابات ، وبدأت القبائل العربية فى الجنوب ، والتى لم تكن راضية

أصلا عن هذا الغزو الحبشى المسيحى لليمن ، ترفع رأسها مثيرة العقبات فى وجه ولدى أبرهة • ولم تكن الحبشة فى وضع يســـمح لها باستعادة نفوذ لها كان قد حرمها منه أبرهة •

وهكذا سمحت وقائع الأحداث لواحـــد من أذواء اليمن ، ينتمى لأسرة عريقة ، هو سيف بن ذى يزن ، أن يعمل فكره فى كيفية استغلال هذه الفوضى السياسية والضعف العسكرى للوجود الحبشى فى اليمن ، للتخلص من هذا الاحتلال • ولم يكن الرجـــل بغافل عن لعبة الصراع الدولى بين فارس وبيزنطة حول المنطقة ، ولذا رأى هو الآخر ، كما رأى ذو نواس الحميرى اليهودى ، وكما فعل المسيحيون فى نجران من قبل، ضرورة الاستعانة باحدى هاتين القوتين العظميين لتحقيق أهدافه •

والذى يلفت الانتباه ، تبعا لما ورد فى المصـــادر التاريخية ، أن سيف بن ذى يزن ، قـــد التجأ فى أول الأمر الى الامبراطور البيزنطى ليساعده فى طرد الأحباش من اليمن ، غير أن الامبراطور رفض ، وكان طبيعيا أن يرفض هذا المطلب ، متعللا بأنه يتفق والأحباش فى العقيدة، ومن ثم فلا يمكنه تحقيق ما جاء من أجله الزعيم اليمنى(١٥٠) • وقد يبدو هذا الأمر غريبا لأن سيف بن ذى يزن كان يعلم بالعلاقات التى تربط بين الامبراطورية البيزنطية والأحباش • ويقدم أحد الباحثين اليمنيين رأيا طريفا لتفسير هذا الذى أقـــدم عليه سيف ، فيقول : « انه عندما ذهب وجهاء القوم الى قيصر الروم ، لم يكونوا ينوون حقيقة الاستعانة بهم ، لعلمهم مسبقا أنه مسيحى يناصر الأحباش ، وانما كان الهـــدف تخفيف الضغط ومساومته بالخداع وتقليل مســاعدته للأحباش على أقل الأحوال » ، ويضيف : « واليمنى ذكى بالطبع ، عالم بمجارى السياسة ونتائجها ، فلا يغامر مغامرة كهذه غير عارف بمصائر الأمور»(١٥١) •

لكن المسألة لا تبدو بهذه البساطة التى يفترضها الباحث اليمنى ، فليس من المنطقى أن يضيع الزعيم اليمنى وقته وينفق جهده عبثا ، من أجل أن يخفف من تأييد البيزنطيين للأحباش ، فى وقت كان فيه البيزنطيون لا يملكون الرغبة وليس عندهم الاستعداد ، أن يقذفوا بجزء من جيوشهم العاملة على الحدود الطويلة ، الساخنة أبدا ، الى هـــذه

الأراضى البعيدة بجغرافيتها الصعبة ، وحملة آيليوس جاللوس ماثلة أمام ناظريهم كما أشرنا ، بالاضافة الى أن ادارة الخارجية البيزنطية باتت مقتنعة تماما أن الأحباش فى اليمن أمسوا فى موقف لا يحسدون عليه بعد هزيمة أبرهة عند مكة وموته ، وأن دورهم فى هذه المنطقة قد تقلص ولم تعد له قيمة تذكر .

وهذه النقطة الأخيرة بالذات هى التى تجعلنا نختلف فى الرأى تماما مع الباحث اليمنى صاحب هذا الرأى ، ونذهب مباشرة الى القول بأن التجاء سيف بن ذى يزن الى الامبراطور البيزنطى ، جاء بوعى كامل لما يفعله ، وادراك حقيقى لطبائع الأمور . فما دام التخلص من النفوذ الحبشى الأجنبى لن يتم - على الأقل فى تلك الظروف - الا بالاستعانة باحدى المعسكرين ، ضمن لعبة الصراع بين القوى العظمى على مناطق النفوذ ، والتى لا بد أن سيفا كان يدرك أبعادها تماما ، اذن فمن الأجدى ، بل ومن الطبيعى ، أن يستعين بصاحب المصلحة الحقيقية والمباشرة فى المنطقة ، أعنى البيزنطيين . واذا كان للفرس اهتماماتهم الكبيرة بما يجرى ليس بعيدا عن حدودهم الجنوبية الغربية، وما يمثله من أهمية اقتصادية ندعم سيادتهم الاحتكارية على طرق التجارة الذاهبة الى بيزنطة ، الا أن الامبراطورية البيزنطية كانت تعتبر هذه المنطقة جزءا حيويا وهاما جدا فى صراعها مع فارس ، سياسيا واقتصاديا ، لا يقل أهمية عندها عن لازيقا أو ابيريا أو أرمينيا .

فاليمن - بغض النظر عن أهميتها فى حد ذاتها لبيزنطة ، الا أنها فى الوقت نفسه مفتاح البحر الأحمر من ناحية الجنوب ، وصولا الى مصر ، أهم ولايات الامبراطورية آنذاك من الناحيتين السياسية والعسكرية ، ناهيك طبعا عن الناحية الاقتصادية ، اذ كانت « قبو الحنطة » أو « صومعة الغلال » بالنسبة للقسطنطينية(١٥٢) ، وهى ليست عن طموحات الفرس ببعيد ، ولن تفتأ فارس تسعى لضرب بيزنطة فيها ، حتى تحقق لها ذلك فى بدايات القرن السابع الميلادى ، خلال السنوات الأولى من عهد الامبراطور البيزنطى هرقل Heraclius (٦١٠ - ٦٤١) ، ومن ثم كانت المصالح البيزنطية فى اليمن ، لا تقف

عند حد الأهمية الاقتصادية ، التجارية بصفة خاصة ، أو امتداد النفوذ السياسى فى الصراع مع فارس ، بل لكونها كما ذكرنا توا ، مفتاح البحر الأحمر من الجنوب وصولا الى « مخزن الغلال » فى شماله .

لهذا لم يكن غريبا أن يذهب سيف بن ذى يزن الى الامبراطور البيزنطى يرجو عونه فى طرد الأحباش ، فى مقابل أن يتعهد هو نفسه بحماية المصالح البيزنطية فى المنطقة . وهذا هو ما يقوله ابن هشام بالحرف الواحد ، حيث يذكر « أن سيف بن ذى يزن قدم الى قيصر الروم يشكو اليه ظلم الأحباش ويمنيه بالسيادة على اليمن »(١٥٣) والعبارة الأخيرة لا تدع مجالا للشك فى أن سيفا فعل ذلك وهو يعلم تماما حقيقة المصالح البيزنطية فى المنطقة . ولعل هذا هو الذى يفسر طول مكثه فى القسطنطينية ، والذى امتد قرابة سبع سنوات ، اذا صحت رواية المسعودى(١٥٤) مؤملا أن يستجيب الامبراطور لمطلبه ، وليس من المستبعد أيضا أن تكون القسطنطينية نفسها هى التى تعمدت استبقاء الزعيم اليمنى مقيما فيها طيلة هذه السنوات ، وذلك أسلوب شاع استخدامه كجزء أساسى من قواعد الدبلوماسية البيزنطية ، مع زعماء الشعوب والدول والقبائل الذين يفدون الى العاصمة البيزنطية يخطبون ودها . الا أن الامبراطور البيزنطى ، رغم اقتناعه ـ كما نفترض ـ بوجهة نظر سيف بن ذى يزن ، الا أنه لم يشأ أن يمد له يد عونه ، ليس كما يذهب البعض(١٥٥) بسبب العلاقات بين فارس وبيزنطة نتيجة توقيع معاهدة السلام الأخيرة ، لأن فارس نفسها لم تحترم هذه المعاهدات عندما تحول اليها سيف مستنجدا ، ولكن لما فصلناه سابقا من ظروف بيزنطة وسياستها .

وجد سيف بن ذى يزن نفسه مضطرا اذن أن يولى وجهه شطر القوة الكبرى الأخرى ، فارس(١٥٦) ، وتمكن مؤخرا من الحصول على عون كسرى أنوشروان الذى أمده بقوة عسكرية قادها وهرز **Wahriz** تمكنت من هزيمة « مسروق » وقضت على قوة الأحباش باليمن . وكتب القائد الفارسى الى سيده يخبره بذلك ، فبعث اليه كسرى يأمره أن يملك سيف بن ذى يزن على اليمن وأرضها ، وفرض كسرى على سيف جزية سنوية وخرجا يؤديه اليه فى كل عام ، وكتب الى وهرز أن ينصرف

اليه(١٥٧) ٠ ولا شك أن هذه السياسة التى اتبعها الفرس فى اليمن ، وعودة قائدهم بقواته الى فارس ، تضيف دليلا قويا على صدق ماذهبنا اليه الآن عن ذهاب سيف بن ذى يزن الى امبراطور بيزنطة أولا ٠ فهو الآن أمسى تابعا لفارس يؤدى اليها جزية سنوية ، وكان على استعداد أن يلعب نفس الدور مع بيزنطة ، صاحبة المصلحة الحقيقية فى المنطقة ، من أجل التخلص من الاحتلال الحبشى ٠ ولو لم تكن فارس على يقين بأن بيزنطة ، غير راغبة وغير مستعدة للتصـــدى لها عسكريا ، لفكرت كثيرا قبل أن تقدم على هذا العمل العسكرى ضد الأحباش حلفاء بيزنطة٠

بل لقد ذهبت فارس الى أبعد من ذلك عندما أقدمت على الاحتلال الفعلى لليمن وتوابعها وضمها الى دائرة نفوذها وسلطانها تماما ،بعد مقتل سيف بن ذى يزن ومحاولة الأحباش استرداد نفوذهم ثانية(١٥٨) ٠ ولم يأت الفرس هذه المرة بدعوة من أحـــد ، انما جاءوا بدوافع مصالحهم السياسية والاقتصادية ، وليحققوا بذلك كسبا هاما فى هـــذه المنطقة الحيوية ، دون أن تلقى مقـــاومة من جانب الامبراطورية البيزنطية ، ولتظل لفارس السيادة هناك حتى ظهور الاسلام ، وقيام الدولة الاسلامية قوة جديدة من القوى العظمى فى عالم العصور الوسطى ، ودخول اليمن ضمن شبه الجزيرة العربية كلها تحت السيادة الاسلامية ٠

هكذا قدر لفارس أن تكسب الجولة قبـــل الأخيرة ، من جولات الصراع بينها وبين بيزنطة حول شبه الجزيرة العربية ، بعد استباق طويل بينهما للسيادة عليها اقتصاديا وسياسيا ، أخذ من القرن السادس الميلادى ما نيف على نصفه ، حتى اذا أدرك بيزنطة الضعف ، وبلغ منها الجهد مبلغا كبيرا بعد وفاة جوستنيان عام ٥٦٥ ، وبفعل سياسته ، اغتنمت فارس الفرصة المواتية ، واستولت عســـكريا على كل ساحل الجنـــوب العربى ، وبلاد العرب السعيدة ، ولتمسى هذه المنطقة الهامة واقعة تحت السيادة الفارسية ٠ الا أن ذلك لم يقدر له أن يستمر طويلا بفضل الفتح الاسلامى لليمن ٠ ولن تلبث القوة الاسلامية الناشئة أن تصطدم بالقوتين العظميتين فارس وبيزنطة ، وأن تقوض دعائم الامبراطورية الفارسية ، وأن ترث بذلك العداء التقليدى ـ كقـــوة عظمى ـ تجاه الامبراطورية البيزنطية ٠

حواشى البحث

(١) الثعالف : الحيتان ، راجع محمد الأكوع الحـــوالى ، اليمن الخضراء ، ص ٤٠٣ ٠

(٢) ابن هشام : السيرة ، جـ ١ ، ص ٢٨ ـ ٣٠ ، التيجان فى ملوك حمير ، ص ٣١٢ ؛ الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٢ ، ص ١٠٥ ـ ١٠٦ ؛ ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٦٣٧ ؛ اليعقوبى ، تاريخ ، جـ ١ ، ص ١٩٩ ؛ المســعودى ، مروج الذهــب ، جـ ٢ ، ص ٧٧ ـ ٧٨ ؛ ابن الأثيـر ، الــكامل فى التاريخ ، جـ ١ ، ص ٢٥٣ ؛ البلخى ، البدء والتاريخ ، جـ ٢ ، ص ١٨٤؛ ياقوت ، معجم البلدن ، جـ ٧ ، ص ٢٦٢ ٠

(٣) جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى : « ٠٠٠ قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، اذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ، وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذى له ملك السماوات والأرض والله على كل شىء شهيد ٠ ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق » ٠ (البروج ٤ ـ ١٠) ٠

وانظر : الطبرى : جامع البيان ، جـ ٣٠ ، ص ١٣٢ ـ ١٣٥ ؛ الفخر الرازى : التفسير الكبير ، جـ ٣١ ، ص ١١٨ ـ ١٢٢ ؛ القرطبى : الجامع لأحكام القــرآن : جـ ٢٠ ، ص ٢٨٦ ـ ٢٩٣ ؛ النسفى : مدارك التنزيل ، جـ ٣ ، ص ٦٧٣ ـ ٦٧٤ ؛ ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، جـ ٨ ، ص ٣٨٧ ـ ٣٩٢ ؛ الخازن : لباب التأويل : جـ ٤ ، ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦ ؛ الألوسى : روح المعانى ، جـ ٣٠ ، ص ٨٨ ـ ٩٠ ٠

(٤) ZACH. MET. Chron., pp. 190-200 ; PROCOP. Bell. Pers. I, 189 ;

The Book of Himyarites, p. CV

(٥) سورة البروج : الآيات ٨ ـ ١٠ ٠

(٦) معجم البلدان ، جـ ٧ ، ص ٢٦٢ ٠

(٧) عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ، ص ٧٤ ؛ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب قبل الاسلام ، ص ١٢٧ ٠

(٨) جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، جـ ٣ ، ص ١٧٩ ٠

(٩) سورة المائدة : آية ٨٢ ٠

(١٠) سورة آل عمران : آية ٧٥ ٠

(١٢) القرطبى : الجامع ، جـ ٢٠ ، ص ٢٨٦ ـ ٢٩٣ ٠

(مجلة المؤرخ العربى)

(١٣) ZACH. Chron., p. 193

(١٤) تذكره النصـــوص البيزنطيـة باســـم « دميانوس » Dimianus و « ديمنوس » Dimnus ، بينما يرد ذكره عند الأحباش باســـم « فنحاص » Phinhas وفى المصادر السريانية باسم « مسروق » Masruk وان كان هو نفسه قد تسمى بيوسف عند تهوده ٠

(١٥) Shahid, Byzantium in south Arabia, p. 31

(١٦) فيليب حتى : تاريخ العرب ، ص ٩٥ ـ ٩٦ ؛ موسكاتى : الحضـــارات السامية القديمة ، ترجمة السيد يعقوب بكر ، ص ١٩٣ ، وراجع أيضا :
Sharf, Byzantine Jewry, p. 31

(١٧) Trimingham, Christianity among the Arabs in pre-Islamic times, p. 289.

وراجع أيضا Sellassie, Ancient and Medieval Ethiopian history, pp. 126-127.

وكذلك : نبيه عاقل : تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ، ص ١٠٤ ٠

(١٨) هناك أحداث شبيهة بذلك الى حد كبير وقعت فى القرن الثامن الميلادى ، عندما تحولت دولة الخزر ، الواقعة بين بحر قزوين (الخزر) والبحر الأسود شرقا وغربا ، والفولجا والقوقاز شمالا وجنوبا ، الى اليهودية ، لتتصدى لمحاولات القوتين السياسيتين الكبيرتين آنذاك ، الدولة الاســـلامية ممثلة فى الخـــلافة العباسية ، والامبراطورية البيزنطية المسيحية ، ويقول « كوستلر » فى كتابه The Khazar Empire and its heritage : « كانت امبراطورية الخزر تمثل قوة ثالثة أثبتت أنها ند لكل منهما ، ســـواء باعتبارها خصـــما أو حليفا ، ولكنهـــا كانت تستطيع الاحتفاظ باستقلالها فقط عندما ترفض اعتناق المسيحية أو الاسلام ، لأن كلا من الخيارين كان سيؤدى بها تلقائيا الى الانضـــواء تحت سلطة الامبراطور الرومانى أو خليفة بغداد » ، راجع ، ص ٧٢ من الترجمة العربية لكتاب « كوستلر » التى قام بها حمدى متولى صالح ، دمشق ١٩٥ ٠ ويقـــول « بيورى » Bury فى كتـــابه Eastern Roman Empire, p. 406 : « ليس ثمة شك فى أن الحاكم الخزرى كان متاثرا بدوافع سياسية حينما اعتنق اليهودية ، ذلك أن اعتناق الاسلام كان سيجعل منه تابعا روحيا للخلفاء الذين حاولوا أن ينشروا عقيدتهم بين الخزر ، كما أن اعتناق المسيحية كان يكتنفه خطر الخضوع للكنيسة الأرثوذكسية » ٠

(١٩) Trimingham, Christianity among the Arabs, p. 289.

وأيضا : Sharf, Byzantine Jewry, p. 32

(٢٠) ZACH. Chron., p. 197.

(٢١) راجع نص الرسالة فى ZACH. Chron., pp. 193-197 والمعروف أن هذه الرسالة التى يوردها المؤرخ الكنسى زكريا المتلينى ، نقـــلا عما كتبه الأسقف سمعان ، راعى المسيحيين فى فارس الى سميه كاهن كنيسة كابولا Cabbula قد تضمنت مواقف المسيحيين فى ظفار ونجـــران من يهودية ذى نواس ومحاولته صرف هؤلاء عن عقيدتهم ، وذكرت الكثير عن « البطولات » التى قدمها النساء تضامنا مع أزواجهن مما يضع أمام الباحث كثيرا من علامات الاستفهام فى صحة نســـب هذا الجزء من الرسالة الى ذى نواس ، الذى لا يعقل أن يذكر بـــ « الاعجاب » موقف المسيحيين من فعاله ٠

(٢٢) Bell. Pers. I, p. 189

(٢٣) MALALAS, Chron., p. 432

وأيضا : MICH. SYR. Chron., p. 183

(٢٤) ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، نقلا عن منذر عبد الكريم البكر ، دراسات فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، تاريخ الدول الجنوبية ، ص ٣٦٢ ـ ٣٦٣ ٠

(٢٥) منذر عبد الكريم البكر ، العرب قبل الاسلام ، ص ٣٦٢ ـ ٣٦٣ ٠

(٢٦) Sharf, Byzantine Jewry, p. 32 وراجع أيضـــا ، نبيه عاقل : تاريخ العرب القديم ، ص ١٠٤ ٠

(٢٧) ابن هشام : التيجان فى ملوك حمير ، ص ٣١٢ ؛ ابن قتيبة : المعارف ، ص ٦٣٧ ؛ اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، جـ ١ ، ص ١٩٩ ٠ ومن المعروف أن كالب هذا هو الاسم الذى ورد فى الكتابات الحبشية ، أما المصـــادر البيزنطية فتســـميه ال أصبحة Elisbahaz

(٢) ابن هشام : السيرة ، جـ ١ ، ص ٣١ ؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ١ ، ص ٢٥٣ ٠

(٢٩) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٢ ، ص ١٠٦ ٠

(٣٠) الأزرقى : أخبار مكة ، جـ ١ ، ص ١٣٥ ٠

(٣١) البلخى : البدء والتاريخ ، جـ ٣ ، ص ١٨٤ ٠

(٣٢) Shahid, Byzantium in South Arabia, p. 25
Vasiliev, Justin, p. 367

(٣٣) Shahid, Byzantium in South Arabia, p. 25

(٣٤) ممتاز العارف : الأحباش بين مأرب وأكسوم ، ص ٤٣ ـ ٤٤ ٠

(٣٥) جواد على : تاريخ العرب ، جـ ٣ ، ص ٤٤٩ ـ ٤٥٦ وقارن ، بافقيه : تاريخ اليمن القديم ، ص ١٣٤ ـ ١٣٦ ، ١٥٦ ، ١٧٧ ـ ١٧٨ وحاشـــية رقم ١٩٥ ص ٢٣٩ ٠

(٣٦) PROCOP. Bell. Pers., I, XIX

وأيضا : MALALAS, Chron., pp. 456-459

(٣٧) حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ، ص ٩٦ ٠

(٣٨) محمد أحمد حسونة : الجغرافيا التاريخية الاسلامية ، ص ١٣ وأيضا : حورانى : العرب والملاحة ، ص ٩٤ ٠

(٣٩) ربما يعود حفر هذه القناة فى أول أمرها الى الفرعون المصرى القـــديم نكاو من ملوك الأسرة السادسة والعشرين ٠ وقد أعاد ملك فارس دارا الأول حفرها فى القرن الخامس قبل الميلاد ، ثم قام الامبراطور الرومانى تراجان بتطهيرها وحفر قسما جديدا من طرفها الغربى ليصلها بالنيل عند بابليون ، حتى يحسن الاتصـــال بالفرع الكانوبى من دلتا النيل ، كى تسهل حركة الملاحة الى الاسكندرية ٠ وقد أعيد حفر هذه القناة مرة أخرى على عهد الخليفة عمـــر بن الخطاب حيث عرفت بخليج أمير المؤمنين ٠

(٤٠) حورانى : العرب والملاحة ، ص ٨٦ ٠

(٤١) موسكاتى : الحضارات السامية القديمة ، ص ٣٥٤ حاشية ١٢ ٠

(٤٢) المرجع نفسه ؛ وللوقوف على تفاصيل هذه الطرق التجارية كلها ، راجع محمد أحمد حسونة : الجغرافيا التاريخية الاسلامية ، ص ١٢ ـ ٢٠ ٠

(٤٣) حورانى : العرب والملاحة ، ص ٢٤ ٠

(٤٤) كان البخور على رأس بضائع العالم الثمينة المطلوبة فى ذلك العصر ، كان سعره ـ على حد تعبير جواد على ـ يساوى سعر الذهب والبترول فى أيامنا هذه ، ولم يكن يشتريه لغلائه الا رجال الدين لاستعماله فى الطقـــوس الدينية التى تستنزف القسم الأكبر منه ، وكذا الملوك والأثرياء ، وذلك لاحراقه فى المناسبات الدينية والاجتماعات ٠ وكان حرق هذه المادة يكلف خزانة الدولة ثمنا باهظا لارتفاع أسعارها ٠ راجع جواد على : تاريخ العرب ، جـ ٢ ، ص ٦٦ ٠

(٤٥) البكر : دراسات في تاريخ العرب القديم ، ص ٣٨٢ ٠

(٤٦) أوليرى ، علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب ، ترجمه كامل وهيب ، ص ١٣٥ ٠

(٤٧) محمد حسين هيكل : حياة محمد ، ص ٨٩ ، ويطلق على طريق البحر الأحمر (البرى والبحرى) طريق الغرب ٠

(٤٨) هايد : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، ج ١ ، ترجمة أحمد محمد رضا ، ص ٢٢ ٠

(٤٩) MALALAS, Chron., p. 433

(٥٠) جواد على : تاريخ العرب ، ج ٢ ، ص ٦٣٢ ؛ حـــورانى : العـــرب والملاحة ، ص ٩٨ ٠

(٥١) هايد : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى ، ص ٢٤ ٠

(٥٢) عبد اللطيف أحمد على : مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية ، ص ٦٣ ٠

(٥٣) راجع تفاصيل هـــذه الحمـــلة عند عبد اللطيف أحمـــد على : مصر والامبراطورية الرومانية ، ص ٦٣ ـ ٦٧ ، ١٣٤ ، وأيضا جواد على : تاريخ العرب، ج ٢ ، ص ٤٤ ـ ٥٩ ، وكذلك بافقيه : تاريخ اليمن القديم ، ص ٨٢ ـ ٨٣ ٠

(٥٤) عبد اللطيف أحمد على : مصر والامبراطورية الرومانية ، ص ١٣٥ ٠

(٥٥) للوقوف على تفاصيل مشروعات الأباطرة الرومان فى سبيل الحفاظ على نفوذهم ومصالحهم فى هذه المنطقة على عهود تراجان فى القرن الثانى ، وسبتميوس سفروس وفيليب العربى فى القرن الثالث الميلادى ؛ راجع جـــواد على ، ج ٢ ، ص ٦٠ ، ٦٥ ـ ٦٨ ٠

(٥٦) راجع تفصيلات هذه الأحداث والأدوار التى مرت بها المسيحية من خلال موقف الأباطرة الرومان منها فى مؤلفات الباحث ، الدولة والكنيسة ، الأجزاء ٢ ، ٣ ، ٤ ، القاهرة ١٩٨٢ ـ ١٩٨٤ ٠

(٥٧) هكذا كان يحلو لقسطنطين أن يسمى نفســـه ، راجع للباحث : الدولة والكنيسة ، ج ٢ ، ص ١١٢ ـ ١١٩ ٠

(٥٨) كتب قسطنطين الأول رسالة الى ملك فارس ، يحثه فيها على معاملة رعيته المسيحية معاملة طيبة ، وأن ينزلهم منزلا كريما ، والا فانه سوف يجلب على نفسه عداء « مبعوث الرب » (يعنى نفسه) ، الذى لابد أن ينتقم لما قد يحل بهؤلاء الرعايا المسيحيين فى فارس ، راجع للباحث : الدولةوالكنيسة ، ج٢ ، ص١١٢ـ١١٤٠

(٥٩) ATHANAS. Apologia ad Constantium, 31

(٦٠) راجع للباحث : قواعد الدبلوماسية البيزنطية ، المجلة التاريخية المصرية، العدد ٣٣ ، ص ٧٤ ـ ٧٨ ٠

وراجع أيضا : Bury, history of the Later Roman Empire, II, p. 292.

وكذلك : Diehl, Byzantium : Greatness and Decline, p. 59

(٦١) عن الآريوسية : نشـــأتها وفكرها ورجالها ، وكـــذا النيقية ، راجع للباحث : الدولة والكنيسة ، جـ ٢ ، ص ١٥٥ ـ ٢٥١ ٠

(٦٢) للوقوف على تفصيلات الأحداث التى امتلأت بها هـــذه الفقرة ، راجع للباحث : الدولة والكنيسة ، جـ ٣ ، ص ١٨٥ ـ ١٨٧ ، ٢٣٢ ـ ٢٣٤ ٠

(٦٣) Dvornik, origins of the intelligence Services, p. 169.

وأيضا : عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ، ص ٣٨ ـ ٣٩ ٠

(٦٤) راجع تفصيلات ذلك فى : Jones, Later Roman Empire, I, pp. 225-230

(٦٥) يمكن التعرف على كل هذه الخلافات العقيـــدية التى حدثت فى القرن الخامس فى : Hefele, history of the councils, Vols. II, III.

وأيضا : Percival, The Seven ecumenical councils, (in Nicene and post Nicence Fathers, Vol. XIV, pp. 191-267.

(٦٦) النساطرة هم أتباع نسطور Nestorius بطريرك كنيسة القسطنطينية فى عشرينيات القرن الخامس الميلادى ، نادى بأن العذراء هى أم المسيح البشر وليست أم المسيح الاله ، مغلبا بذلك الطبيعة البشرية فى المسيح على الطبيعة الالهية ، جهر بآرائه عام ٤٢٨ وتصدت له كنيسة الاسكندرية فى عهد أسقفها كيرلس Cyrillus ومن ورائها روما ، ومن ثم دعا الامبراطور ثيودوسيوس الثانى الى عقد مجمع فى مدينة افسوس Ephesus فى آسيا الصغرى ، عرف بالمجمع المسكونى الثالث عام ٤٣١ ، تقرر فيه ادانة نسطور ونفيه ولعن النسطورية ومطاردة أتباعها ، مما اضطر هؤلاء الى اللجوء الى الأراضى الفارسية ٠ راجع :

Hefele, history of the Councils, III, pp. 9-96

وأيضا : Chadwick, The Early Church, pp. 194-200

(٦٧) Trimingham, Christianity among the Arabs, p. 303.

(٦٨) جواد على : تاريخ العرب القديم ، جـ ٣ ، ص ٤٩٠ ـ ٤٩١ ٠

(٦٩) Dvornik, origins of the intelligence services, pp. 168-169

وأيضا : Jones, Later Roman Empire, I, pp. 232-235.

وكذلك : Milne, A history of Egypt under Roman rule, p. 103.

(٧٠) رأفت عبد الحميد : الدولة والكنيسة ، ج ٣ ، ص ٣٥٧ ٠

(٧١) كانت هذه الممالك هى : مملكة الوندال فى أفريقيا ، ومملكة القوط الغربيين فى اسبانيا ، مملكة الأنجلو سكسون في بريطانيا ، مملكة الفرنجة فى غالة (فرنسا)، ومملكة القوط الشرقيين فى ايطاليا ٠

(٧٢) كانت أول تجربة عملية فى هذا السبيل آنذاك ، الحرب التى دارت بين الفرس والرومان فى عام ٢٦٠ ، وتمكنت فارس من انزال هزيمة ساحقة بروما وأخذ الابماطور الرومانى فاليريان Valerianus أسيرا مما عد اذلالا للامبراطورية٠

(٧٣) يستثنى من ذلك طبعا الفترة التى خضعت فيها القسطنطينية لسيادة العناصر اللاتينية ، نتيجة الحملة الصليبية الرابعة والتى امتدت الى سبع وخمسين سنة بين عامى ١٢٠٤ ـ ١٢٦١ ٠

(٧٤) هذا التعبير استخدمه ب٠ كاسل أحد مستشرقى القرن التاسع عشر ، للدلالة على حقيقة الامبراطورية التى كونها الهون خلال القرن الخامس الميلادى ، وامتدت من وسط آسيا حتى وسط أوروبا ٠ نقلا عن : كوستلر : امبراطورية الخزر وميراثها ، ص ٢٣ ٠

(٧٥) كوستلر : امبراطورية الخزر ، ص ٣١ ؛ بارتولد : تركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، ص ٣٠٥ ٠

(٧٦) توينبى : تاريخ البشرية ، ج ٢ . ص ٣٢ ـ ٣٣ ، ٤٣ ٠

(٧٧) MALALAS, Chron., pp. 413-429

وأيضا : CHRON. PASCH., pp. 613-614

وكذلك : Holmes, The Age of Justinian and Theodora, I, p. 311.

(٧٨) رأفت عبد الحميد : قواعد الدبلوماسية البيزنطية ، ص ٢٩ ـ ٨٣ ٠

(٧٩) PROCOP. Bell. Pers. I, p. 93

وراجع : Stein, histoire du Bas-Empire II, p. 270

(٨٠) Bury, Later Roman Empire II, p. 80

وأيضا : Benjamin, story of Persia, pp. 231-232.

(٨١) رأفت عبد الحميد : قواعد الدبلوماسية البيزنطية ، ص ٧٠ ـ ٧٤ ٠

(٨٢) يبدو من هذه المراسلات مدى حرص جوستنيان على احلال السلام بين الدولتين ، ليتمكن من تحقيق مشروعه الاستردادى فى الغرب ، فقد جاء فى احدى رسائله الى قباذ قوله : « علمنا من رسلنا بعد عودتهم من ضيافتكم ، صدق نياتكم ، ٠٠٠ وانه لمن حق الله علينا أن نحمده شاكرين فضله حتى يتحقق السلام بيننا ٠ ان هذا السلام لأمر عظيم ، يحمل لبلدينا الأمن والرخاء ، ويزيح من أمامنا أعداءنا ، ولتكن على يقين من أننى سوف أعهد الى ممثلينا دائما بأن يبذلوا كل ما فى وسعهم كى تنجح مفاوضات السلام هذه ، ودمتم لنا محبا ودودا » ٠ راجع
MALALAS, Chron., pp. 449-450

(٨٣) رأفت عبد الحميد : الثورة الشعبية فى القسطنطينية ، المجلة التاريخية المصرية ، العدد ٣٢ ، ص ٢٥ ـ ٨٨ ٠

(٨٤) Ghirshman, Iran from the Earliest times to the Islamic Conquest, p. 341.

(٨٥) MALALAS, Chron., pp. 454-455

(٨٦) ZACH. MET. Chron., 163; PROCOP. Bell. Pers. I, p. 77.

(٨٧) PROCOP. Bell. Goth. II, p. 517

وأيضا : Ure, Justinian and his Age, p. 77.

(٨٨) PROCOP. Bell. Goth. II, pp. 536-537

(٨٩) MENAN. except. de Leg. Roman, pp. 359-363 وراجع :

Ure, Justinian, pp. 97-99

(٩٠) IOAN. LYD. de magist., p. 244

وقارن : PROCOP. hist. arc., p. 137

(٩١) Id.

(٩٢) PROCOP. Build.,pp. 133-135

(٩٣) PROCOP. Bell. Pers. I, p. 253

(٩٤) من المعروف أن الحرب استؤنفت من جديد بين البيزنطيين والقوط الشرقيين ، بعد أن أدرك هؤلاء حقيقة الخديعة التى أوقعهم فيها القائد البيزنطى ٠ واستمرت هذه الحرب من بعد خمسة عشر عاما تالية حتى انتهت بهزيمة القوط عام ٥٥٥ فى موقعة عرفت باسم مقبرة الغال ٠

(٩٥) التجارة فى الشرق الأدنى ، ص ٣٢ ـ ٣٣ ٠

(٩٦) المرجع نفسه ، ص ١٧ ٠

(٩٧) Bury, Later Roman Empire, II, p. 320.

وأيضا حورانى : العرب والملاحة ، ص ٩٧ ٠

(٩٨) Dvornik, Origins of the intelligence services, p. 168

ومن المعروف أن نصيبين لم تكن وحدها فقط هى الموضع الوحيد لتسويق هذه التجارة ، اذ كانت هناك أيضا « الرقة » على الفرات ، وسهل دوبيوس Doubius فى أرمينيا الفارسية بالقرب من أرضروم Theodosiopolis ، راجع :

ZACH. MET. Chron., p. 5 ; PROCOP. Bell. Pers. I, 25, 30.

(٩٩) خرسون هى حاليا سباستبول ، وبوسبور هى كرش ٠

(١٠٠) انظر قبله ، وأيضا ، بارتولد : تركستان ، ص ٣٠٥ ٠

(١٠١) PROCOP. hist. arc. 30.

(١٠٢) أشرنا من قبل الى محاولات بيزنطية جرت فى هذا السبيل ، وهى جهود كل من الامبراطور قسطنطيوس فى القرن الرابع ، والامبراطور أنسطاسيوس فى أواخر القرن الخامس الميلادى وبدايات القرن السادس ٠

(١٠٣) EUSEB. hist. eccl. V. 16

(١٠٤) هايد : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى ، ص ٢١ حاشية ٢ ٠

(١٠٥) لم تكن هذه هى المرة الأولى فى العصر البيزنطى ، التى يقدم اليهود فيها على اعلان مملكة لهم ، بل فعلوا ذلك من قبل على عهد الامبراطور زينون (٤٧٤ ـ ٤٩١) واختاروا شخصا يدعى جوستوس Justus ملكا عليهم ، واعتدوا على المسيحيين فى نابلس وقيسارية ٠ غير أن هذه الفتنة قضى عليها بعد أن تخلص زينون من المشكلات التى واجهته فى أول عهده ، وجىء برأس جستوس ، وتاجه الى الامبراطور ٠ أنظر :

PROCOP. Build., pp. 349-353; MALALAS, Chron., pp. 382-383; MICH. SYR. Chron. II, pp. 148-149.
Dubnov, history of the Jews, II, pp. 208-209

(١٠٦) كانت الحكومة البيزنطية قد أصدرت على عهد الامبرطور ثيودوسيوس الثانى عدة تشريعات سنة ٤٣٨ لصالح العقيدة المسيحية ، تقضى بحرمان اليهود السامريين من الوظائف العامة ، وعدم السماح لهم ببناء معابد جديدة ، أو الدعوة

لديانتهم · وفى سنة ٥٢٧ وهى السنة التى اعتلى فيها جوستنيان العرش ، كان أول شىء أقدم عليه الامبراطور الجديد ، هو تجـــديد تشريعات الامبراطور ثيودوسيوس الثانى ، وأضاف اليها جواز مصادرة ممتلكات الوارثين من السامريين لصالح خزانة الدولة ، الا أن يتحول هؤلاء الى المسيحية · واذ تزامنت هذه القرارات مع ضياع أمل اليهود فى اقامة مملكة لهم فى اليمن ، بعيدا عن سلطان بيزنطة ، أقدموا على احداث هذه الاضطرابات · أنظر :

PROCOP. hist. arc., p. 97; ZACH. MET. Chron., p. 232; MALALAS, Chron., p. 455; CHRON. PASCH., p. 872 ; Parkes, A history of Palestine, pp. 79-81 ; Milman, history of the Jews, pp. 224-225.

(١٠٧) Byzantine Jewry, p. 33

(١٠٨) PROCOP. Bell. Pers. I, pp. 193-195

(١٠٩) Id.

(١١٠) PROCOP. Bell. Goth. II, 17 وكان قد تم نقـــل هـــذه الصناعة الى خوتان عن طريق زواج ملكها بأميرة صينية ، نقلت خلسة معها الى مملكة زوجها دود القز وبذر التوت ·

(١١١) PROCOP. Bell. Pers. I, p. 193

(١١٢) يذكر بروكوبيوس أن جوستنيان كان يظهر صداقته تجاه أحـد سادات العرب يسميه « قيس » ، وقد منحه لقب Phylarchus وأراد أن ييسر له السيادة على قبائل نجد العربية ، ليمد بالتالى نفوذه الى هذه المنطقة ، غير أن هذه المحاولة لم يقدر لها النجاح · أنظر :

PROCOP. Bell. Pers. I, p. 193.

(١١٣) Id.

(١١٤) Kawar, Byzantium and Kinda, p. 61; Bury, Later Roman Empire, II, p. 325 ؛ جواد على : تاريخ العرب القديم ، جـ ٣ ، ص ٤٧٢ ـ ٤٧٣ ·

(١١٥) لم يستمر السميفع فى حكم اليمن تحت نفوذ الأحباش طويلا ، اذ سرعان ما ثار عليه الأحباش أنفســـــهم ، وأعقب ذلك الصراع بين ارياط وأبرهة ، قائدى الحملة ، وتمكن أبرهة من هزيمة منافسه ، والانفراد بالسلطن · انظر :

PROCOP. Bell. Pers. I, pp. 191-193 وتذكر المصادر العربية روايات طريفة حول هذه الناحية ، وهى أن ملك الحبشة عندما علم بأمر أبرهة ، أقسم أن يطأ أرض اليمن بقدمه ، وأن يجز ناصية أبرهة ويريق دمه ، فلما سمع أبرهة بذلك ، وضع حفنة من تراب اليمن فى وعاء ، وقص طرفا من شعر رأسه ، وسكب بعضا من دمه فى قارورة ، وأرسل بهذا كله مع رسالة الى ملك أكسوم يحله من قسمه ، فهذه أرض اليمن ممثلة فى هذه الحفنة من التراب ، ما عليه الا أن يطأها ، وهذا دمه وشعره · وتضيف الروايات أن ملك أكسوم أعجب بذكاء أبرهة ودهائه وحسن تصرفه ، ورضى عنه لقاء جزية سنوية يدفعها له ، وبعد أن غمره بالهدايا الثمينة · أنظر ، ابن هشام: السيرة ، جـ ١ ، ص ٣٦ وما بعدها ، الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، حـ٢ ، ص١٠٩ ؛ المسعودى مروج الذهب ، جـ ٢ ، ص ٧٨ ؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ١ ، ص ٢٥٤ ·

(١١٦) Philiby, The Background of Islam, p. 122.

(١١٧) رافت عبد الحميد : قواعد الدبلوماسية البيزنطية ، ص ٦٢ ·

(١١٨) Shahid, Byzantium in South Arabia, p. 59

ويحاول عرفان شهيد أن يؤكد دائما على الدور السورى فى جنوب الجزيرة العربية ، ويجعله متفوقا على التأثير الحبشى ، ويعلل ذلك بعاملين : أولهما التوافق المذهبى يعنى الطبيعة الواحدة !! وثانيهما رابطة الدم التى تربط ـ على حد قوله ـ بين البيت الغسانى فى سوريا ، وبيت الحارث فى نجران ، وهو الذى كانت له الزعامة بين المسيحيين هناك حتى عهد ذى نواس ·

(١١٩) IOAN. EPH. hist. eccl. III, pp. 323 ff.

(١٢٠) Trimingham, Christianity among the Arabs, p. 302

(١٢١) Neale, A history of the holy Eastern Church, II, p. 36.

(١٢٢) Sellassie, Ancient and Medieval Ethiopian history, p. 142.

(١٢٣) هسى : العالم البيزنطى ، ترجمة رافت عبد الحميد ، ص ١١٨ ·

(١٢٤) راجع تفاصيل السياسة العقيدية للامبراطور جوستنيان فى :
Jones, Later Roman Empire, I, pp. 285-287, 296-298.

(١٢٥) تعاقب على كرسى الاسكندرية الأسقفى طيلة عهد جوستنيان ، عدد من الأساقفة الخلقيدونيين ، وهـــم على التـــوالى : بولس (٥٣٨ ـ ٥٤٢) زويلوس

Zoilus (٥٤٢ ـ ٥٥١) ، أبو للينـــاريوس Appollinarius (٥٥١ ـ ٥٧٠) ونلاحظ أن جوستنيان ظل يحارب فى ايطاليا من أجل استعادتها حتى عام ٥٥٥ ، ثم انتقل بعد ذلك الى اسبانيا · ومن ثم كان حريصا على أن يظل فى جانب الخلقيدونية كسبا لعطف البابوية · ومن الجدير بالذكر أن المصريين كان لهم أسقفهم المونوفيزيتى خلال هذه الفترة أيضا يقيم فى حمى رهبان وادى النطرون · أنظر Trimingham, Christianity among the Arabs, p. 302 n. 39.

(١٢٦) Neale, holy Eastern Church, II, p. 36

(١٢٧) Trimingham, Christianity among the Arabs, p. 302.

(١٢٨) تخبرنا المصادر أن ملك أكسوم حاول القضاء على أبرهة والتخلص منه واعادة اليمن الى التبعية الحبشية المباشرة ، الا أن حملاته التى أرسلها لتحقيق هذا الهدف باءت بالفشل ، فاضطر للسكوت على مضض ورضى وان كـــان دون اقتناع بالهدايا القيمة والجزية السنوية التى يرسلها اليه أبرهة · أنظر :
PROCOP. Bell. Pers., p. 197 وقارن حاشية رقم ١١٥ ·

(١٢٩) Shahid, Byzantium in South Arabia, p. 27.

(١٣٠) Sellassie, Ancient and Medieval Ethiopian history, p. 147.

(١٣١) بلغ من عظم شأن الحارث بن جبلة عند جوستنيان ، أنه نجح فى اقناع الامبراطور بتعيين أسقفين من أصحاب الطبيعة الواحدة ، هما ثيودور ويعقوب على كنيستى بصرى والرها ، وهو شىء لم يفلح ملكا أكسوم واليمن فى الحصول عليه ، لتأييد الامبراطور لمذهب الطبيعتين · أنظر :

IOAN. EPH. Lives of the Eastern Saints, P.O. XIX, pp. 237-238.

(١٣٢) PROCOP. Bell. Bers., I, XIX; hist. Arc. XI; MALALAS, Chron., XVIII.

(١٣٣) Trimingham, Christianity among the Arabs, p. 276

وأيضا : Kawar, The Arab in the peace treaty of A.D. 561, p. 182.

(١٣٤) أكد القرآن الكريم هذه الصلات التجارية بين مكة من ناحية واليمن والشام من ناحية أخرى فى سورة قريش « لايلاف قـــرشيں ايلافهم رحلة الشـــتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » ·

(١٣٥) جواد على : تاريخ العرب القديم ، جـ ٢ ، ص ٦٣٢ ٠

(١٣٦) أحمد أمين : فجر الاسلام ، ص ١٣ ؛ الحوفى : الحيـــاة العربية من الشعر الجاهلى ، ص ١٠١ ٠ ومن الطريف ما يذكره بروكوبيوس من أن أبرهة كان عبدا وان كان مواطنا رومانيا ، وكان يعمل فى التجارة فى ميناء عدول .PROCOP Bell. Pers. I, p. 191 ويرجـــح Sellassie أن يكون أبرهة هذا هو الممثل التجارى للملك الحبشى كالب فى هذا الميناء ٠ راجع ٠
Ancient and Medieval Ethiopian history, p. 135

(١٣٧) الحوفى : الحياة العربية من الشعر الجاهلى ، ص ١٠٠ ٠

(١٣٨) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٢ ، ص ١٨٠ ويضيف قوله : « فجبر الله بهم قريشا ، وأصلح أحوالها ، وأفاء عليها كثيرا من الخيرات ، فسمى هؤلاء الأربعة المجبرين » ٠

(١٣٩) يناقش عرفان شهيد مسألة بناء هذه الكنيسة فى صنعاء ، ويقدم آراء أخرى ترى بناءها فى ظفار أو نجران ـ لمعرفة ذلك راجع :
Shahid, Byzantium in South Arabia, p. 81.

وقارن : الأزرقى : أخبار مكة ، جـ ١ ، ص ١٢٩ ؛ الدينورى : الأخبار الطوال، ص ٦٢ ، ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٥٧٧ ٠

(١٤٠) هذه الكلمة تصحيف للكلمة اليونانية Ecclesia

(١٤١) Shahid, Byzantium in South Arabia, pp. 81-82.

(١٤٢) Sellassie, Ancient and Medieval Ethiopian history, p. 151 ويذكـــر الطبـــرى أن رجـلا يدعى محمد بن خـــزاعة الذكوانى ، قدم على أبرهة فى نفر من قومه ،يلتمسون فضله ، فأمره أبرهة على مكة ، وأمره أن يسير فى الناس فيدعوهم فى جملة ما يدعوهم اليه الى حج القليس ، فسار هذا حتى اذا نزل ببعض أرض بنى كنانة ، وقد بلغ أهل تهامة أمره ، وما جاء له ، بعثوا اليه رجلا من هزيل يقال له عروة بن حياض الملاصى ، فرماه بسهم فقتله وتفرق أصحابه٠ راجع : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٢ ، ص ١١٠ وأيضا تفسير الطبرى ، جـ ٣ ، ص١٩٤٠

(١٤٣) كانت بعض القبائل العربية مثل جذام وتغلب وعاملة على المسيحية ، لكنها مسيحية سطحية ، ولا شك أن السرعة التى اعتنقت بها هذه القبائل الاسلام ، تعد دليلا على رقة ايمانهم بالمسيحية ٠ أنظر : عمر فروخ : تاريخ الأدب العربى ، جـ ١ ، ص ٦٣ ٠

(١٤٤) جواد على : تاريخ العرب القديم ، جـ ٣ ، ص ٥١٧ ـ ٥١٨ ٠

(١٤٥) تذكر المصادر العربية أن رجلا من بنى مالك بن كنانة ، أغاظه ما أغاظ العرب من بناء هذه الكنيسة ، فخرج حتى قدم اليمن ، فدخل الهيكل فأحدث فيه ٠ فغضب أبرهة وأجمع على غزو مكة وهدم البيت !! راجع : ابن هشام : السيرة ، جـ١، ص ٤٣ ـ ٤٦ ؛ الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٢ ، ص ١١٠ ؛ الأزرقى : أخبار مكة ، ص ١٣٨ ـ ١٤٠ ٠

(١٤٦) Benjamin, Story of Persia, p. 233.

(١٤٧) كانت هناك بعض الصلات بين المنذر الثالث ملك الحيرة ، وجوستنيان، فقد حصل المنذر فى بعض الأحيان على الجزية من الامبراطور البيزنطى ، وكان قادرا على التعامل معه دون تدخل الملك الفارسى ، بل ان هناك مراسلات دارت بين المنذر وجوستنيان كان واضحا منها أن جوستنيان يحـــاول استخدام دهاءه الدبلوماسى لاستمالة المنذر الى صفه أو على الأقل زعزعة الثقة بينه وبين الملك الفارسى ، وقد وقعت بعض هذه المراسلات فى يد كسرى أنوشروان مما أفقده لبعض زمن ، الثقة فى ملك الحيرة ٠ أنظر PROCOP. Build., p. 163, hist. arc., p. 50 وأيضا : Trimingham, Christianity among the Arabs, p. 198

(١٤٨) يربط المفسرون المسلمون هذه الحملة وفشلها بمولد الرســـول الكريم صلى الله عليه وسلم ، ويطلقون على هذا العام عام الفيل ، ويستدلون على ذلك بخبر أصحاب الفيل الذى ورد ذكرهم فى القرآن الكريم فى قول الله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ٠ ألم يجعل كيدهم فى تضليل ٠ وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ٠ فجعلهم كعصف مأكول » ٠ وتختلف الروايات فيما بينها ، وبين القدامى والمحدثين حول السنة التى وقعت فيها هذه الحملة ٠ وليس هنا مجال الخوض فى مثل هذه الآراء ٠

(١٤٩) هسى : العالم البيزنطى ، ترجمة رأفت عبد الحميد ، ص ٢٤٩ ٠

(١٥٠) ابن هشام : التيجان فى ملوك حمير ، ص ٣١٥ ، السيرة ، جـ ١ ، ص ٦٥ ؛ الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٢ ، ص ١١٤ وما بعدها ؛ المسعودى : مروج الذهب ، جـ ٢ ، ص ٨٠ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ١ ، ص ٢٦٣ ٠

(١٥١) محمد الأكوع الحوالى : اليمن الخضراء ، ص ٤١٩ ٠

(١٥٢) للوقوف على خطورة هذا الأمر فى السياسة البيزنطية عندئذ ، راجع : رأفت عبد الحميد ، مصر والعرش البيزنطى ، بحث منشور ضمن كتاب مصر والبحر المتوسط ، القاهرة ١٩٨٥ ٠

(١٥٣) ابن هشام : السيرة ، جـ ١ ، ص ٦٥ ؛ الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٢ ، ص ١١٥ ٠

(١٥٤) المسعودى : مروج الذهب ، جـ ٢ ، ص ٨٠ ٠

(١٥٥) Sellassie, Ancient and Medieval Ethiopian history, p. 157.

(١٥٦) وقد جاء فى الحوار الذى دار بين سيف بن ذى يزن وكسرى أنوشروان ، قول سيف : « ٠٠٠ أيها الملك : غلبتنا الأغربة على بلادنا ، فجئتك لتنصرنى عليهم ، وتخرجهم عنى ، ويكون ملك بلادى لك ، فأنت أحب الينا منهم » ، أنظر : الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٢ ، ص ١١٦ ٠

(١٥٧) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٢ ، ص ١١٧ ٠

(١٥٨) أقدم بقايا الأحباش على الانتقام من سيف بن ذى يزن ، باعتباره المسبب فى القضاء على ملكهم هناك ، ومن ثم دبروا أمر اغتياله ، ونجحوا فى ذلك ، مما أدى الى عودة القائد الفارسى وهرز ثانية الى اليمن ومعه أربعة آلاف جندى ، وكانت الأوامر الصادرة اليه تقضى بقتل كل الأحباش هناك حتى المولدين منهم ٠ وقد أدى ذلك الى هروب أعداد منهم الى مكة حيث لعبوا دورا بارزا فى الحيـــاة العسكرية والاجتماعية من بعد ٠

المصـادر والمراجع

أولا : المصـــادر

(أ) المصـادر العـــربية

ـــ ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن على ، ت ٦٣٠ هـ :
الكامل فى التاريخ ، بيروت ١٩٧٨

ـــ ابن العبرى ، جريجوريوس الملطى ت ٦٨٥ هـ :
تاريخ مختصر الدول ، بيروت بدون تاريخ ٠

ـــ ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينورى ت ٢٧٦ هـ :
المعـارف ، القاهرة ١٩٦٩ ٠

ـــ ابن كثير ، الحافظ أبو الفدا ت ٧٧٤ هـ :
تفسير القرآن العظيم ، القاهرة بدون تاريخ ٠

ـــ ابن هشام : أبو محمد عبد الملك ت ٢١٨ هـ :
- السيرة النبوية ، بيروت ١٩٧٥ ٠
- التيجان فى ملوك حمير ، صنعاء ١٩٧٩ ٠

ـــ الأزرقى ، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد ت ٢٢٤ هـ :
أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، بيروت بدون تاريخ ٠

ـــ الألوسى ، أبو الفضل شهاب الدين محمود ت ١٢٧٠ هـ :
روح المعانى ، القاهرة بدون تاريخ ٠

ـــ البلخى ، أبو زيد أحمد بن سهل :
البدء والتاريخ ، القاهرة ١٩٠٣ ٠

ـــ الخازن ، علاء الدين على بن محمد بن ابراهيم :
لباب التأويل فى معانى التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، القاهرة ١٩٧٢ ٠

— الطبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير ت ٣١٠ هـ :
ـ تاريخ الأمم والملوك ، بيروت بدون تاريخ .
ـ جامع البيان من تأويل آى القرآن ، القاهرة ١٩٦٨ ، وبهامشه تفسير النيسابورى .

— القرطبى ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى ت ٦٧١ هـ :
الجامع لأحكام القرآن ، القاهرة ١٩٧٦ .

— الفخر الرازى ، محمد الرازى فخر الدين ت ٦٠٤ هـ :
التفسير الكبير ومفاتح الغيب ، بيروت ١٩٨١ .

— المسعودى ، أبو الحسن على بن الحسين ت ٣٤٦ هـ :
مروج الذهب ومعادن الجوهر ، بيروت ١٩٨٢ .

— النسفى ، أبو البركات عبد الله أحمد بن محمود ت ٧٠١ هـ :
تفسير القرآن الجليل ، بيروت بدون تاريخ .

— اليعقوبى ، أحمد بن أبى يعقوب ت ٢٨٤ هـ :
تاريخ اليعقوبى ، بيروت ١٩٦٠ .

— ياقوت الحموى ، شهاب الدين أبو عبد الله الرومى ت ٦٢٦ هـ :
معجم البلدان ، بيروت ١٩٥٧ .

(ب) المصـادر غير العربية

— ATHANASIUS, Apologia ad Imperatorem Constantium, in Nicene and post Nicence Fathers of the Christian Church, Vol. IV, 2 ed. ser., ed. by Philip Schaff, Henry Wace, Michigan 1891 et sqq.

— BOOK of HIMYARITES, fragments of a hitherto unknown Syriac work, ed. with introduction and translation by Axel Moberg, London 1924.

— CHRONICON PASCHALE, in CSHB*, 2 vols. ed. by L. Dindorf, Bonn 1832.

(مجلة المؤرخ العربى)

— CONSTANTINUS VII PORPHYROGENITUS, De Administrando Imperio, trans. by R.J.H. Jenkins, Budapest, 1949.

— EUSEBIUS, Historia Ecclesiastica, Nicene and Post Nicene fathers, vol. I, 2 ed. ser. Michigan 1891.

— IOANNES EPHESUS, Lives of the Eastern Saints, the Syriac text with an English translation, ed. and trans. by E.W. Brooks, in P.O.** (XVII, XVIII, XIX, Paris 1923-1925).

— IOANNES LYDUS, De Magistratibus, ed. by B.G. Neibuhr, in CSHB*, Bonn 1873.

— MALALAS, Chronographia, ed. by L. Dindorf, in CSHB, Bonn 1831.

— MENANDERUS, Excerpta de Legationibus Romanorum, ed. by B.G. Neibuhr, in CSHB*, Bonn 1840.

— MICHAEL LE SYRIEN, Chronographia, ed. et trad. par J.B. Chabot, Tome II, Paris 1904.

— PROCOPIUS, — De Bello Gothico, ed. and trans. by H.B. Dewing, London 1940.
— De Bello Persico, ed. and trans. by H.B. Dewing, 2 vols., London 1914.
— Historia Arcana, trans. by G.A. Williamson, London 1966.

— THEOPHANES, Chronographia, ed. by I. Classen, in CSHB*, 2 vols Bonn 1839.

— ZACHARIAH of MITYLENE, Chronographia, trans. by F.J. Hamilton and E.W. Brooks, London 1899.

ثانيـا : المراجع

(أ) المراجع الأوروبيـــة

— Bausani (A.), The Persians, from the earliest days to the twentieth century, London 1975.

— Benjamin (S.G.W.), The story of Persia, London 1986.

— Bury (J.), History of the Later Roman Empire, 2 vols. London, 1931.

— Chadwick (H.), The early church, London, 1974.

— Diehl (Ch.), Byzantium : Greatness and Decline, trans. from the French by Nooami Walford, New Brunswick, 1957.

— Duchesne (L.), L'Eglise au VIème siècle, Paris, 1925.

— Dubnov (S.), History of the Jews, vol. 2, London, 1968.

— Dvornik (F.), Origins of intelligence services, New Jersey, 1974.

— Ghirshman (R.), Iran from the earliest times to the Islamic conquest, London, 1954.

— Hefele (C.S.), History of the Councils of the Church, trans. in 5 vols. and ed. by W.R. Clark, Edinburgh, 1972.

— Holms (W.G.), The age of Justinian and Theodora, 2 vols. London, 1912.

— Huart (C.), Ancient Persia and Iranian Civilization, London, 1972.

— Jones (A.H.M.), The Later Roman Empire, 3 vols. Oxford, 1964.

— Kawar (I.), Byzantium and Kinda, in Byzantinische zeitschrift, vol. LIII, Muchen, 1960.

— The Arabs in the Peace treaty of A.D. 561, in Arabica III, Leiden, 1956.

— Lebeau, Histoire du Bas Empire, Paris, 1827 sqq.

— Milman (H.), The history of the Jews, vol. 2, London, 1939.

— Milne (J.), A history of Egypt under Roman ruel, London, 1913.

— Neal (J.M.), A history of the holy Eastern church, 2 vols. London, 1947.

— Parkes (J.), A history of Palestine from 135 A.D. to Modern times, London,(1949.

— Percival (H.R.), The Seven Ecumenical Councils, in Nicene and post Nicene fathers, Vol. XIV, Michigan, 1899.

— Philby (H. St. J.B.), The background of Islam, Alexandria, 1947.

— Reinaud (M.), Relation politiques et commerciale de l'Empire Roman avec l'Asie Orientale, Paris, 1893.

— Sellassie (S.H.), Ancient and Medieval Ethiopian history to 1270, Addis Ababa, 1972.

— Shahid (I.), Byzantium in South Arabia, in Dumbarton Oaks papers, XXXIII, 1979.

— Sharf (A.), Byzantine Jewry, London, 1971.

— Stein (E.), Histoire du Bas-Empire, Tome II, Paris, 1950.

— Trimingham (J.S.), Christianity among the Arabs in pre-Islamic times, London, 1979.

— Vasiliev (A.A.), History of the Byzantine Empire 324-1453, 2 vols. Madison and Milwaukee, 1964.

— Justin the first, Cambridge 1950.

— URE (P.N.), Justinian and his age, Penguin Book, 1951.

(ب) المراجع العـــربية والمترجمة

ـــ ابراهيم بيضون : الحجاز والدولة الاسلامية ، بيروت ١٩٨٣ ٠

ـــ أحمد أمين : فجر الاسلام ، القاهرة ١٩٧٥ ٠

ـــ أحمد محمد الحوفى : الحياة العربية من الشعر الجاهلى ، بيروت بدون تاريخ ٠

ـــ السيد عبد العزيز سالم : دراسات فى تاريخ العرب قبل الاسـلام ، الاسكندرية بدون تاريخ ٠

ـــ أوليرى : علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب ، ترجمة كامل وهيب ، القاهرة ١٩٦٢ ٠

ـــ بارتولد (ڤاسيلى ڤلاديمروفتش) : تركستان من الفتح العـــربى الى الغزو المغولى ، ترجمه عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، الكويت ١٩٨١ ٠

ـــ توينبى (أرنولد) : تاريخ البشرية، ترجمة نقولا زيادة فى جزءين، بيروت ١٩٨٨ ٠

ـــ جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت / بغداد ١٩٧٧ ٠

ـــ جورج فضلو حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ، ترجمة السيد يعقوب بكر ، القاهرة بدون تاريخ ٠

ـــ رأفت عبد الحميد : الدولة والكنيسـة ، أربعة أجـزاء ، القاهرة ١٩٨٢ ـ ١٩٨٤ ٠

ـ الثورة الشعبية فى القسطنطينية ٥٣٢ ، المجـلة التاريخيـة المصرية ، ٣٢/القاهرة ١٩٨٥ ٠

ـ قواعد الدبلوماسية البيزنطية ، المجلة التاريخية المصرية ، ٣٣/ القاهرة ١٩٨٦ ٠

ـــ عبد اللطيف أحمد على : مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية ، القاهرة ١٩٦١ ٠

ـــ عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ، القاهرة بدون تاريخ ٠

ـــ عمر فروخ : تاريخ الأدب العربى ، الجزء الأول ، العصر الجاهلى، بيروت ١٩٨١ ٠

ـ تاريخ الجاهلية ، بيروت ١٩٨٦ ٠

ـــ فيليب حتى : تاريخ العرب ، بيروت ١٩٨٦ ٠

ـــ كوستلر (آرثر) : امبراطورية الخزر وميراثها ، ترجمة حمدى متولى صالح ، دمشق ١٩٨٥ ٠

ـــ لويس (أرشيبالد) : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ترجمة أحمد عيسى ، القاهرة بدون تاريخ ٠

ـــ محمد أحمد حسونة ، الجغرافية التاريخية الاسلامية ، القاهرة بدون تاريخ ٠

ـــ محمد الأكوع الحوالى : اليمن الخضراء مهد الحضارة ، ١٩٨٢ ٠

ـــ محمد حسين هيكل : حياة محمد ، القاهرة ـ الطبعة الرابعة عشرة بدون تاريخ ٠

ـــ محمد عبد القادر بافقيه : تاريخ اليمن القديم ، بيروت ١٩٧٣ ٠

ـــ محمد محمد الشيخ : الممالك الجرمانية ، الاسكندرية ١٩٧٥ ٠

ـــ ممتاز العارف : الأحباش بين مأرب وأكسوم،صيدا ،بيروت١٩٧٥٠

ـــ منذر عبد الكريم البكر : دراسات فى تاريخ العرب قبل الاسلام : تاريخ الدول الجنوبية فى اليمن ، البصرة ١٩٨٤ ٠

ـــ موسكاتى (سبتينو) : الحضارات السامية القديمة ، ترجمة السيد يعقوب بكر ، بيروت ١٩٨٦ ٠

ـــ نبيه عاقل : تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ، دمشق ١٩٧٥ ٠

ـــ هايد (ف) : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، الجزء الأول ، ترجمة أحمد محمد رضا ، القاهرة ١٩٨٥ ٠